جمع القرآن
بين أبي بكر وعثمان
رضى الله عنهما

تأليف
الدكتور
حسن عبد النبي إبراهيم شاهين
أستاذ مساعد بكلية الآداب
جامعة حضرموت

LIBRARY

دار
الحسين الإسلامية
٢٥ ح المدرسة - خلف الجامع الأزهر
٠١٠٨٣٠٠٩٠٧ / ٢٥١٤٧٣٢٢

اسم الكتاب : جمع القرآن بين أبي بكر وعثمان

المؤلف : الدكتور حسن شاهين

اسم المطبعة : دار الحسين الإسلامية

رقم الإيداع : ١٤٨٤١/٢٠١٥

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الحسين الإسلامية

٢٥ شارع المدرسة - خلف الجامع الأزهر الشريف

ت : ٥١٤٧٣٢٢ - ٠١٠٨٣٠٠٩٠٧

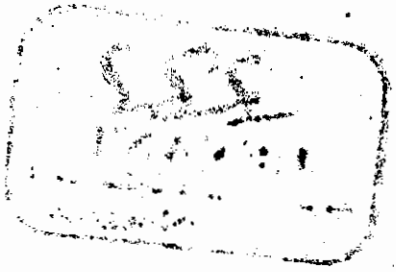

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ...

إنَّ من أشرف العلوم وأرفعها قدراً وأعلاها مكانة ومنزلة ما له صلة وثيقة بالكتاب والسُنَّة فهما المنبع الصافي والمنهل العذب لأحكام الشريعة الغراء وخير ما يصرف الإنسان فيه جهده وطاقته ووقته هو خدمة الإسلام والمسلمين والاشتغال بالقرآن حفظاً وتلاوة ودراسة وفهماً وتدبراً وفكراً .

والحق أنّني منذ وضعت قدمي على طريق العلم والمعرفة والشوق يحرقني إلى الكتابة في أصل من أصول الشريعة أو منبع من ينابيعها الفياضة لكى أقوم بواجبي نحو كتاب الله عزَّ وجلَّ وبالأمانة التي وضعت في عنقي كداعية إلى الله . وظلّت هذه الرغبة تتردد في صدري ما بين الأمل البعيد الذي تطويه الأيام وتنال منه السنون وتضعفه في النفس هموم الحياة وشواغلها وبين الواقع الحقيقي المثقل بالعواقب والصعوبات . وظللت على ذلك حتى منحني الله سبحانه العزم والقوة التي تساعد على النهوض بهذا العمل وإنجازه فمضيت في طريقي غير هياب ولا متردد أجمع المادة العلمية من مصادرها الأصلية بكل أنواعها لكى أتمكن من الكتابة في موضوع مثل هذا أراه من أهم الموضوعات التي تتعلق بالقرآن من كتابته وتدوينه وجمعه فى عهد أبى بكرٍ وعثمان رضى الله عنهما ، فمن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خص القرآن بالحفظ والعناية في قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وإنَّ من أهم وسائل حفظه كتابته وتدوينه بواسطة الكُتَّاب المخصصين

لذلك وفي حضور النبي ﷺ ثم جمعه من اللخاف والرقاع وسعف النخيل وغيرها في مصحف واحد بعد الرجوع اليه في وقت الحاجة وكان هذا الجمع في عهد سيّدنا أبي بكر رضي الله عنه وظل القرآن الكريم على هذا الوضع حتى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما تنازع بعض المسلمين فيما بينهم بسبب الاختلاف في القراءة والأداء وبدأ هذا الاختلاف في قراءة القرآن يتسع والخطر يتفاقم حتى قام سيّدنا عثمان بجمع القرآن الكريم مرة ثانية ووحّد القراءة في الأقطار والأقاليم التابعة للدولة الإسلامية ، وقد ترتب على هذا الجمع سلامة النص القرآني من التحريف والتبديل والتغيير الذي قد ينتج عن الاختلاف في النطق والأداء .

لقد كان القرآن موضع عناية المسلمين واهتمامهم منذ أن نزل على قلب النبي ﷺ حتى وصل إلينا جيلاً بعد جيل محفوظاً من الله سبحانه .

وإنَّ من وسائل حفظه أنَّ الله سبحانه قيّد له رجالاً يقومون بحفظه ويعكفون على فهمه ودرسه ويرتلون آياته آناء الليل وأطراف النهار فبحثوا في معرفة حفاظه ورواته ومعانيه وإشاراته وحقيقته ومجازه وتشبيهاته واستعاراته وتعاريضه وكناياته وإيجازه وإطنابه وأقسامه وأمثاله والمحكم منه والمتشابه وعامه وخاصه ومقدمه ومؤخره وناسخه ومنسوخه ومطلقه ومقيده ومنطوقه ومفهومه وإعجازه وخواصه إلى غير ذلك من العلوم المنشقة منه والمتفرعة عنه ، وكان هؤلاء العلماء والباحثين يعدون بالمئات في كل عصر من العصور وصدق فيهم قول القائل :

لله قوم بحفظ الدِّين قد قاموا بين البرية قدراً بينما كانوا
لكم أبانوا بآى الذكر من حكم أثنى عليهم بها شرع وقرآن

لقد ترك لنا هؤلاء العلماء ثروة علمية هائلة من العلوم والمعارف ظلّت أبد الدهر منهلاً عذباً لمن جاء بعدهم من طلاب العلم والمعرفة وزاداً لهم في كل مراحل الطريق ، وبفضل هذه الثروة العلمية المتمثلة في المصادر والمصنفات تمكنت الأمة الإسلامية من الانخراط في طريق التقدم والازدهار وقامت لها حضارة زاهرة مازالت آثارها باقية حتى يومنا هذا .

وقد حاولت في هذا الكتاب على قدر الطاقة أن أسلك منهجاً علمياً أصيلاً في تقصي الحقائق العلمية وسرد الأحداث التاريخية المصاحبة لهذا الجمع العظيم معتمداً في ذلك على المصادر العلمية المختلفة ، كما حرصت على صياغة الكتابة بأسلوب سهل بحيث يتلاءم مع ثقافة ومستوى القارئ العادي ، وبعيداً عن التعقيدات اللفظية والأساليب البلاغية .

أهمية الموضوع

وترجع أهمية جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضى الله عنهما إلى أسباب كثيرة نذكر من أهمها :

١ ـ أنَّ جمع القرآن يمثل حجر الزاوية ومحور الارتكاز في تاريخ القرآن كله ، فقد ترتب على جمعه حفظه من التحريف أو التبديل أو الضياع أو االتغيير.

٢ ـ إظهار وإبراز مكانة كلّ من سيدنا أبي بكر وعثمان من خلال هذا العمل الجليل ، فقد قدما للإسلام بهذا العمل أكبر الخدمات وأعظمها قدراً .

٣ ـ تمييز الفروق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وجمعه في عهد عثمان رضى الله عنهما للوقوف على دقائق هذا الجمع في المرحلتين .

هذا وقد قسمت الكتاب إلى مقدمة وستّة فصول وخاتمة ..

أمّا المقدمة فقد اشتملت على أهمية الموضوع وأسباب اختياره ومنهج البحث فيه .

الفصل الأول : وقد اشتمل على التعريف بالقرآن وأسمائه وفيه مبحثان :

المبحث الأول ـ الوحى ومراتبه وأحواله .

المبحث الثاني ـ كيفية تلقي الرسول عن جبريل .

الفصل الثاني : مراحل نزول القرآن وكيفيته ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول ـ جملة الأقوال في نزوله .

المبحث الثاني ـ حكم نزول القرآن منجماً .

المبحث الثالث ـ نزول القرآن ومعرفة أسبابه .

المبحث الرابع ـ فوائد معرفة أسباب النزول .

المبحث الخامس ـ إعجاز القرآن .

الفصل الثالث : جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ ، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول ـ معاني جمع القرآن ـ وجمعه في القلوب والصدور .

المبحث الثاني ـ أميَّة النبي ﷺ إبان بعثته .

المبحث الثالث ـ جهوده في إزالة الأمية عند الصحابة .

المبحث الرابع ـ حفّاظ القرآن في عهد الرسول ﷺ .

المبحث الخامس ـ أسباب ودواعي حفظ الصحابة للقرآن .

الفصل الرابع : كتابة القرآن في عهد الرسول وأسباب ذلك ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول ـ أسباب كتابة القرآن .

المبحث الثاني ـ كتّاب الوحي .

المبحث الثالث ـ أدوات الكتابة التي يُكتب عليها وبها .

الفصل الخامس : جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وفيه عشرة مباحث :

المبحث الأول ـ غزوة اليمامة .

المبحث الثاني ـ الرأي في جمع القرآن .

المبحث الثالث ـ رأي الخليفة في جمع القرآن .

المبحث الرابع ـ أسباب جمع القرآن .

المبحث الخامس ـ تكليف زيد بالجمع وأسباب ذلك .

المبحث السادس ـ طريقة الجمع .

المبحث السابع ـ ثبوت الثقة للكتاب والمكتوب .

المبحث الثامن ـ خصائص الجمع في عهد أبي بكر .

المبحث التاسع ـ أماكن الضعف .

المبحث العاشر ـ جمع الصحابة للقرآن .

الفصل السادس : جمع القرآن في عهد أبي عثمان رضي الله عنه ، وفيه عشرة مباحث :

المبحث الأول ـ الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه .

المبحث الثاني ـ وقت الجمع .

المبحث الثالث ـ مشاورة عثمان للصحابة .

المبحث الرابع ـ اللجنة التي قامت بالتدوين .

المبحث الخامس ـ منهج الكتابة في عهد عثمان .

المبحث السادس ـ معنى نزول القرآن بلسان قريش .

المبحث السابع ـ عدد المصاحف المنسوخة وأماكن تواجدها .

المبحث الثامن ـ حرق عثمان للمصاحف وإقرار الصحابة عليه .

المبحث التاسع ـ الرسم العثماني في المصاحف .

المبحث العاشر ـ الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان رضى الله عنهما .

الخاتمة ومراجع الكتاب ..

وبعد ...

. فهذا هو جهد المقل الذي حاول قدر الطاقة الوقوف على حقيقة هذا الجمع العظيم للقرآن وحجم الجهود التي بذلت من أجل هذا الجمع والذي ترتب عليه الحفاظ على النصوص القرآنية من التمزق أو التجزئة وسلامتها من التحريف والتبديل ، فإذا كنت قد أصبت فللّه الحمد والمنة ومنه الهداية والتوفيق ، وإن كانت الأخرى فمن نفسي والعصمة للأنبياء والرسل .

وفي النهاية أشكر كل الأيدي المخلصة التي امتدّت إلينا بالعون والمساعدة في كل مراحل الكتابة ، وأسأل الله لي ولهم التوفيق والسداد والهداية والرشاد .

دكتور/ حسن عبد النبي إبراهيم شاهين

obeikan.com

التعريف بالقرآن الكريم

تمهيد

قبل أن نتناول الحديث عن القرآن الكريم ونزوله وما صاحب هذا النزول من حكم بالغة ومواعظ نافعة وعناية فائقة ، وقبل الحديث عن حفّاظه وجمعه في مراحله الثلاث يجب أن نتعرض لبعض الألفاظ الغامضة التي سترد بالبحث لنوضح المعاني اللغوية لها فقد ترد الكلمة الواحدة بأكثر من معنى ويكون لها أكثر من مدلول وذلك على حسب ورودها في الأسلوب والسياق . ومن ثَمَّ سنوضح المعنى اللغوي ـ لجمع القرآن ـ .

أولاً ـ معنى الجمع في اللغة :

الجمع في اللغة معناه تأليف المتفرق وجمعه من هنا وهناك ، وضم بعضه إلى بعض ، والمجموع ما جمع من متفرق(١) .

وجمع الشئ عن تفرقة يجمعه جمعاً واستجمع السيل اجتمع من كل موضع ، تقول جمعت الشئ إذا جئت به من هنا وههنا(٢) ، والجمع ضد المفترق ، وأجمع الأمر إذا عزم عليه ، والجمع أيضاً اسم لجماعة الناس(٣) .

والمعنى أنَّ مادة جمع في اللغة تعني تأليف الشئ الواحد وضمه بتقريب بعضه من بعض .

فنرى هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (سورة القيامة) ، أى تأليف بعضه إلى بعض(٤) .

وجمع المال أى جعله في وعائه ومنع منه حق الله تعالى فكان جموعاً منوعاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ (سورة المعارج آية) .

---

(١) الفيروز آبادي ـ القاموس المحيط ١/ ١٥٤ .

(٢) ابن منظور ـ لسان العرب ٨/ ٥٣ ـ ط، دار صادر ـ الأولى .

(٣) إسماعيل الجوهري ـ مختار الصحاح ١/ ١٩٩ تحقيق محمود خاطر ، ط، لبنان .

(٤) أبي عبيدة المثني التميمي ـ مجاز القرآن ـ تعليق د/ محمد فؤاد سركين ، ط، الثانية ـ الرسالة .

وجمع القرآن يُطلق في كلام العلماء على معنيين :

الأوّل ـ حفظه واستظهاره في الصدور والقلوب .

الثاني ـ كتابته كله حروفاً وكلمات وآيات وسوراً في صحائف أو مصحف.

وقد تحقق المعنيان في القرآن على عهد رسول الله ﷺ فحفظ ضبطاً ونطقاً في القلوب والصدور وحفظ كتابة وتدويناً بكل حروفه وكلماته وآياته وسوره في الصحائف والسطور ، وسيأتي بيان ذلك عند حديثنا عن القرآن في عهد الرسول ﷺ .

التعريف بالقرآن :

أمَّا لفظ القرآن فهو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله واختلف فيه هل هو مهموز أم غير مهموز ، فقرأ ابن كثير أنّه غير مهموز إذ كان بهمز قرأت ولا بهمز القرآن ، ويقول القرآن اسم ليس بمهموز ولم يؤخذ من قرأت ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل ، وسمِّي قرآناً لأنه يجمع السور ويضمها(١) .

وقيل هو مشتق من قرآن الشئ بالشئ إذا ضممت أحدهما إلى الآخر وسُمِّي به لقرآن السور والآيات والحروف فيه ، وقال الفراء هو مشتق من القرائن لأنَّ الآيات منه يصدق بعضها بعضاً ويشابه بعضها بعضاً وهى قرائن وفي كلتا الحالتين بغير همز(٢) .

وأمَّا القائلون بأنه مهموز من حيث أنه مصدر لقرأت على وزن فعلان كالرجحان والغفران سمى به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر ، تقول قرأته قرءاً وقراءة وقرأنا بمعنى واحد أى تلوته تلاوة .

وقال آخرون ومنهم الزجاج هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع وقرأت الماء في الحوض أى جمعته ، وسمى بذلك لأنه جمع سور بعضها إلى بعض(٣) ..

---

(١) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٨١ .
(٢) شهاب الدين الألوسي ـ روح المعاني ١/ ٨ .
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/ ٢٥ .

ونحن إذا رجعنا في اللغة إلى أصل كلمتي كتب وقرأ نجدهما تدوران على معنى الجمع والضم مطلقاً ويلمح هذا الأصل الأول يكون كل واحد من اللفتين ملاحظاً فيه وصف الجمع ، أما على معنى اسم الفاعل أو اسم المفعول فيكون معناه الجامع أو المجموع وهذا اللقب لا يعني فقط أنَّ هذا المسمى جامع للسور والآيات من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب أو من حيث هي نقوش مصفوفة في المصحف والألواح أو من حيث هي أصوات مرتلة منظومة على الألسنة بل يعني شيئاً أدق من ذلك كله وهو أنَّ هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق وأنَّه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام فإن قلت الكتاب أو القرآن فمعناه الكلام الجامع للعلوم ، وصدق الله إذ يقول ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (سورة النحل) .

ويطلق العلماء عدّة تعاريف مختلفة على القرآن الكريم وذلك على حسب تنوع ثقافتهم وتأصلهم العلمي فتعريفه عند الأصوليين مختلف عن تعريفه عند المتكلمين أو الفقهاء أو اللغويين ، والعلّة في هذا الاختلاف أنَّ الكلام يُطلق ويُراد به المعنى المصدري أي التكلم وقد يُراد به المعنى الحاصل بالمصدر أي المتكلم به وكل من هذين المعنيين لفظي ونفسي ، فالكلام البشري اللفظي بالمعنى المصدري هو تحريك الإنسان للسانه وما يساعده في إخراج الحروف من المخارج والكلام اللفظي بالمعنى الحاصل بالمصدر هو تلك الكلمات المنطوقة التي هي كيفية في الصوت الحسي وكلاهما ظاهر لا يحتاج إلى توضيح ، أمَّا الكلام النفسي بالمعنى المصدري فهو تحضير الإنسان في نفسه بقوته المتكلمة الباطنة للكلمات التي لم نبذر إلى الجوارح فيتكلم بكلمات متخيلة يرتبها في الذهن بحيث إذا تلفظ بها بصوت حسي كانت طبق كلماته اللفظية والكلام النفسي بالمعنى الحاصل بالمصدر : هو تلك الكلمات النفسية والألفاظ الذهنية المترتبة ترتباً ذهنياً منطبقاً عليه الترتيب الخارجي(١) ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ (سورة يوسف آية ٧٧) .

فكذلك القرآن يُطلق ويُراد به الكلام النفسي وقد يطلق ويراد به الكلام اللفظي والذين يريدون به الكلام النفسي هم المتكلمون هم المتكلمون لأنهم

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١/ ١٧ .

يتحدثون عن صفات الله النفسية هذا من ناحية ولأنَّ الكلام النفسي مطابق لحقيقة أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق من ناحية أخرى .

أما الذين يُطلقون عليه إطلاق الكلام اللفظي فالأصوليون والفقهاء وعلماء اللغة ، ومن هنا اختلفت التعريفات للقرآن كل على حسب تأثيره العلمي .

فالمتكلمون يعرفونه بأنه الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكمية من أوّل الفاتحة إلى آخر سورة الناس وهذه الكلمات أزلية مجردة من الحروف اللفظية والذهنية والروحية وهى مترتبة غير متعاقبة كالصورة تنطبع في المرآة مترتبة غير متعاقبة(١) .

أما عند الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية بأنه اللفظ المنزل على النبى ﷺ من أوّل الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

وتعريف العلماء للقرآن بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية الهدف منه تقريب معناه وتمييز عن بعض ما عداه مما قد يشاركه في الاسم ولو توهماً وذلك أنَّ سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن في كونها وحياً إلهياً فربما ظنَّ ظان أنها تشاركه في اسم القرآن أيضاً فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع فقالوا: « القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته »(٢) ، وهذا التعريف أضاف الكلام إلى الله تمييزاً له عن كلام مَن سواه من الإنس والجن والملائكة ، والمنزل يدل على قدر الذي شاء أنزله دون ما استأثر به في نفسه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد البشر ، فالذي أنزله الله سبحانه قليل من كثير ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (سورة الكهف) ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (سورة لقمان آية ٢٧) .

---

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١/ ١٨ .

(٢) محمد عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ص١٢ .

وعلى محمد اختصاصه به دون ما نزل على الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف المنزلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام .

ومتعبد بتلاوته ليدل على قراءته في الصلاة وغير الصلاة بقصد العبادة والتقرب إلى الله سبحانه .

وعرفه أهل السُنَّة بقولهم (القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وهو مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور مقروء بالألسنة مسموع بالأذان)(١) .

وهكذا اختلفت التعاريف للقرآن الكريم من حيث الإيجاز والاطناب والاختصار والتوسط ، فمنهم من اقتصر على وصفين هما الإنزال والإعجاز ومنهم من اقتصر على وصفى النقل في المصاحف والتواتر .

والذين توسطوا منهم من عرض لإنزال الألفاظ وللكتابة في المصاحف والنقل بالتواتر فحسب ، ومنهم من عرض للإنزال والنقل بالتواتر والمتعبد بالتلاوة .

غير أنَّ التحديد بما استقر عليه وضع الترتيب المصحفي هو أدق لاستيفائه صفة التعريف الجامع المانع .

أسماء القرآن ومضمونها

وللقرآن الكريم أسماء عديدة وصفات مديدة لا تُحصى عدداً منها ما تضمنه القرآن في آياته ومنها ما جاء السُنَّة النبوية المطهرة وهي أسماء تحمل دلالات عظيمة ومعاني كثيرة وفوائد جمَّة لمضمونها وكثرة الأسماء دالة على شرف المسمى ، فيروي أنه لما جمع أبو بكر القرآن قال سموه فقال بعضهم إنجيلاً فكرهوه ، وقال بعضهم سموه السِّفْر فكرهوه من اليهود ، فقال ابن مسعود رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف فسموه به ، وكان أبو بكر أوّل من جمع كتاب الله وسمَّاه المصحف(٢) .

---

(١) محمد طاهر الكردي ـ تاريخ القرآن ص١٠ .

(٢) في اللغة المصحف بضم الميم وكسرها الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين وتكسر وتضم . =

وقد سُمِّي القرآن بخمسة وخمسين اسماً سمّاه كتاباً ومبيناً في قوله تعالى ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الزخرف آية) ، وسمَّاه قرآناً وكريماً في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (سورة الواقعة) ، وسمَّاه كلاماً في قوله : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (سورة التوبة آية ٦) .

والكلام مشتق من الكلم بمعنى التأثير لأنه يؤثر في ذهن السامع فائدة فلأنّ فيه الدلالة على الحق وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة .

وسمَّاه نوراً في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ (سورة النساء) وسمَّاه هدى ورحمة في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (سورة النمل) ، وسمَّاه فرقاناً في قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (سورة الفرقان) ، وسُمِّي بذلك لأنه فرّق بين الحق والباطل .

وسمَّاه شفاء في قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الإسراء آية ٨٢) ، وأمَّا الشفاء فلأنه يشفي من الأمراض القلبية كالكفر والجهل والغل والبدنية أيضاً كما جاء في السُّنَّة .

وسمَّاه موعظة في قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (سورة يونس آية ٥٧) ، والموعظة هي كل قول يتنفع به الإنسان ويقوم به سلوكه في دينه ودنياه .

وسمَّاه ذكراً مباركاً في قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة الأنبياء) ، وسُمِّي بذلك لما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية والذكر أيضاً الشرف ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة الزخرف) ، أي شرف لأنه بلغتهم .

= وقال الأزهري : إنما سُمِّي المصحف مصحفاً لأنه أصحف أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين . انظر لسان العرب ٤/ ٢٤٠٤ مادة صحف .

وسمَّاه علياً في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة الزخرف) .

وسمَّاه حكمة في قوله تعالى : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة القمر) ، وأمَّا الحكمة فلأنه نزل على القانون المعتبر من وضع كل شيء في محله ، أو لأنه مشتمل على الحكمة .

وسمَّاه حكيماً في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ (سورة يونس) ، والحكيم فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعاني وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف والتباين .

وسمَّاه مهيمناً في قوله تعالى : ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (سورة المائدة آية ٤٨) ، ومهيمن لأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة .

وسمَّاه حبلاً في قوله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (سورة آل عمران آية ١٠٣) ، وسُمِّي بذلك لأنه من تمسك به وصل إلى الجنة أو الهدى والحبل السبب .

وسمَّاه صراطاً مستقيماً في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (سورة الأنعام آية ١٥٣) ، وسُمِّي بذلك لأنه طريق إلى الجنة قويم لا عوج فيه .

وسمَّاه قيِّماً في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا ﴾ (سورة الكهف آية ١ , ٢)) .

وسمَّاه قولاً فصلاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الطارق) . وسمَّاه نبأ عظيماً في قوله : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة النبأ) . وسمَّاه أحسن الحديث ومثاني ومتشابهاً في قوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (سورة الزمر آية ٢٣) ، وسُمِّي بالمثاني فلأنَّ فيه

بيان قصص الأمم الماضية فهو ثاني لما تقدمه ، وقيل لتكرار القصص والمواعظ فيه ، وقيل لأنه نزل مرة بالمعنى ومرة باللفظ والمعنى ، وأمَّا التشابه به فلأنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والصدق .

وسمَّاه تنزيلاً في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ (سورة الشعراء) ، وسمَّاه روحاً في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (سورة الشورى آية ٥٢) ، والروح فلأنه تحيا به القلوب والأنفس .

وسمَّاه وحياً في قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾ (سورة الأنبياء آية ٤٥) ، وسمَّاه عربياً في قوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سورة الزمر) .

وسمَّاه بصائر في قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ (سورة الجاثية آية ٢٠) ، وسمَّاه بياناً في قوله : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ (سورة آل عمران آية ١٣٨) .

وسمَّاه علماً في قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ (سورة آل عمران آية ٦١) وسمَّاه حقاً في قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (سورة آل عمران آية ٦٢) .

وسمَّاه هادياً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الإسراء آية ٩) ، وسمَّاه عجباً في قوله : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ (سورة الجن) .

وتذكره في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة الحاقة) ، وسمَّاه بالعروة الوثقى في قوله : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ (سورة البقرة آية ٢٥٦) .

وسمَّاه صدقاً وعدلاً في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ (سورة الأنعام آية ١١٥) ، وسمَّاه أمراً في قوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ (سورة الطلاق آية ٥) .

وسمَّاه بشرى في قوله : ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (سورة النمل) .

وسمَّاه مجيداً في قوله : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ (سورة البروج) ، والمجيد

لشرفه ، وسمَّاه زبوراً في قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (سورة الأنبياء) .

وسمَّاه بشيراً في قوله : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سورة فُصِّلت) .

وسمَّاه عزيزاً في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ .

وسمَّاه بلاغاً في قوله : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ .

وسمَّاه قصصاً في قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ (سورة يوسف) .

وسمَّاه أربعة أسماء في آية واحدة في قوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ (سورة عبس) .

ويلاحظ أنَّ هناك علاقة وثيقة تربط ما بين التسمية والمعنى ، فكل تسمية أطلقت على كلام الله في كتابه لها دلالة لفظية ومعنية مشتقة من التسمية بحيث إذا استكملت هذه الدلالات كوّنت صورة متكاملة لمضمون هذا الكتاب العزيز ، فتسميته بالقرآن لكونه متلواً بالألسن ، وتسميته بالكتاب كونه مدوناً بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع ، وفي تسميته بهذين الإسمين إشارة إلى أنَّ من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور معاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على الهيئة التي وضع عليها أول مرّة ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز إنجازاً لوعده الذي تكفّل بحفظه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١) .

(١) عبد الله دراز ـ النبأ العظيم ص١٣ .

ولعلَّ من رسائل حفظ الله لكتابه العزيز أنَّه بعث في نفوس هذه الأمة روح التنافس إلى حفظه ودرسه والتسابق إلى قراءته فبلغوا الغاية القصوى في العناية به حتى بلغت عنايتهم بالقرآن أنهم عدُّوا حروفه وكلماته ، حيث جاء عن عبد الله بن عباس أنَّ عدد آي القرآن ستَّة آلاف ومائتان وست عشرة آية .

وعدَّ قوم كلمات القرآن سبعة وسبعين ألف كلمة وتسعمائة وأربعاً وثلاثين كلمة ، وقيل وأربعمائة وسبعاً وثلاثين ، وقيل ومائتان وسبع وسبعون وقيل غير ذلك .

وسبب الاختلاف في عد الكلمات يرجع إلى أنَّ الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كل منها جائز(١) .

ومن الأحاديث الدالة في اعتبار الحروف ما روى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف »(٢) .

ومن أسمائه التي جاءت في السُنَّة المرشد في قوله ﷺ : « مَن عمل به رشد » ، والمعدل في قوله ﷺ : « مَن حكم به عدل » ، والمعتصم في قوله ﷺ : « مَن اعتصم به نجا »(٣) .

وبعد .. فإنَّ القرآن شريعة الله وعمدة الملَّة وينبوع الحكمة وآية الرسالة ونور الأبصار والبصائر لا طريق إلى الله سواه ولا نجاة إلاَّ به ولا تمسك بشئ يخالفه ، ففي الحديث : « إنَّ هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » ، وقوله ﷺ : « إنَّ هذا القرآن حبل الله المتين وأنَّه هو النُّور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرَّد فاتلوهُ فإنَّ الله

(١) السيوطي ـ الاتقان ١/ ١١١ . (٢) الترمذي .

(٣) مجد الدين الفيروزآبادي ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١/ ٧٨ ، تحقيق محمد علي النجار .

يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات إلا وأنَّ أصغر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله .

ومن اللطائف التي تخص القرآن أنَّ له أنصاف باعتبارات فنصفه بالحروف النون في نكراً في الكهف والكاف من النصف الثاني ، ونصفه بالكلمات عند كلمة والجلود في الحج وقوله لهم مقامع من النصف الثاني ونصفه بالآيات ياء يأفكون منه الشعراء ، وقوله فألقي السحرة من النصف الثاني ونصفه من عدد السور آخر الحديد والمجادلة من النصف الثاني .

وقيل إن نصفه بالحروف حرف الفاء في قوله وليتلطف(١) .

كيفية تلقي الرسول ﷺ للقرآن الكريم

أولاً ـ الوحى مراتبه وأحواله :

قبل الحديث عن الكيفية والهيئة التي كان يتلقى بها رسول الله ﷺ الوحى عن الله سبحانه وما تتركه هذه الكيفية من أثر بالغ في نفسه يجب أن تسبق ذلك بتوضيح لمفهوم الوحى وحقيقته وأنواعه وكيفيته التي كان ينزل بها على قلب النبى ﷺ .

التعريف بالوحى

الوحى مصدر وحى إليه يحيي من باب وعد وأوحى إليه أعلمه ، فالوحى لغة الاعلام في خفاء وقيل الاعلام بسرعة ، والوحى أيضاً الكتابة والمكتوب والبعث والإلهام والأمر والإيماء والإشارة .

وفي الشرع ـ الاعلام بالشرع ـ وهو أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر ، ويُطلق الوحى ويُراد به اسم المفعول منه أى الموحى به من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وهو كلام الله المنزل على النبى(٢) .

(١) السيوطي ـ الإتقان ١/ ١١٢ . (٢) الصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٧٠ .

وقال العيني : الوحي هو كلام الله المُنزل على نبي من أنبيائه ، وقيل إعلام الله تعالى أنبياءه لشئ إمَّا بكتاب أو برسالة أو منام أو إلهام(١) .

وصفوة القول أنَّ الوحي معناه إخبار الله أنبيائه بمراده من العباد بطرق متعددة ووسائل شتَّى تعرف بالوحي .

مراتبه وأحواله

كان للوحي أحوال مختلفة ومراتب متعددة وأنواع شتَّى في نزوله على رسول الله ﷺ ، من هذه الأنواع التي كان ينزل الوحي عليها :

الأول : الرؤيا الصادقة في المنام ، تقول السيدة عائشة رضى الله عنها أوّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح(٢) .

والعلّة في ذلك لئلا يفاجئه الملك ويأتيه بصريح النبوّة بغتة فلا تحملها القوى البشرية فبدئ بأوائل خصال النبوّة وتباشير الكرامة ، ومن صدق الرؤيا وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت وتسليم الحجر والشجر عليه بالنبوّة حتَّى استشعر عظيم مايُراد به واستعد لما ينتظره فلم يأته الملك إلاَّ بأمر عنده مقدماته .

وقد وردت الرؤيا الصادقة في حق سيّدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الصافات) .

فدلَّ على أنَّ الوحي كان يأتيهم في المنام كما كان يأتيهم في اليقظة ، ورؤيا الأنبياء حق لأنها وحي .

الثاني : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال ﷺ أنَّ الروح القدس نفث في روعي(٢) لن تموت نفسي حتى تستكمن رزقها

---

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩/ ٣ ـ وابن القيم الجوزية ـ زاد المعاد ١/ ٢٤ .

(٢) الروع بالضم القلب والعقل .

فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته .

وصرح أكثر المفسرين بأنَّ المراد بالوحى هو أن ينفث في قلبه فيكون إلهاماً(١) .

الثالث : أن يأتيه جبريل في صورة رجل فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً ، كما جاء في صورة دحية الكلبي وفي صورة أعرابي وغير ذلك كما في الصحيح ، وليس معنى تمثل الملك بالرجل أنَّ ذاته انقلبت رجلاً بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنساً لمن يخاطبه والظاهر أنَّ القدر الزائد لا يزول ولا يفنى بل يخفى على الرائي فقط .

الرابع : أن يأتيه الوحى مثل صلصلة الجرس وهو أشد عليه فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد(٢) ، وحتى أنَّ راحلته لتبرك على الأرض .

وروى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها أنَّ الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىَّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى في اليوم شديد البرد فيفصم عنه وأنَّ جبينه ليتفصد عرقاً »(٣) .

واستشكل تشبيه مجئ الوحى بصلصلة الجرس إذ المحمود لا يشبه بالمذموم إذ حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامل والمشبه الوحى وهو محمود والمشبه به صوت جرس وهو مذموم لصحة النهى عنه والتنفير من موافقة ما هو عليه

(١) القرطبي ـ تفسير القرطبي ٩/ ٥٨٧٣ .

(٢) صلصلة الجرس هى صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، أو هى الصوت المتتابع الذي يدرك لأوّل وهلة شبه به الوحى من حيث قوته أو المراد صوت حفيف أجنحة الملك .

(٣) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١/ ٥١ .

والاعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة ، والصحيح بأنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها ولا في أحسن وصف له بل يكفي اشتراكهما في صفة ما فقط فالصوت له جهتان جهة قوّة وجهة طنين ، فمن جهة القوة وقع التشبيه ومن جهة الصوت وقع التنفير(١) .

الخامس : أن يرى الملك في صورته التي خُلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتان .

المرة الأولى : عندما نزل عليه أوّل مرة في غار حراء لقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وكانت هذه في الأرض .

المرة الثانية : وكانت في السماء ليلة المعراج .

السادس : ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابع : أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة ملك كما كلّم الله موسى بن عمران(٢) .

هذه هي الأحوال التي كان يأتي بها الوحي وينزل على رسول الله وهي كما ترى فيها تنوع واختلاف وكل حالة يأتي بها سيدنا جبريل عليه السلام تنطوي على حكم عظيمة قد يخفى على البشر إدراكها .

وكان دور سيدنا جبريل في هذا الأمر دور المبلغ عن الله الأمين في الأداء يؤدي ما كلّف به دون زيادة أو نقصان ، قال تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ (سورة الشعراء ١٩٠)

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (التكوير) .

وقد أخطأ من زعم أنَّ جبريل تلقاه عن الله تعالى بمعناه وعبر عنه بلغة

---

(١) الصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٥٦ .

(٢) الصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٧٣ .

العرب أو أنَّه ألقاه إلى النبي ﷺ فتلقاه منه بمعناه وعبّر عنه بلغة قومه فكلا الزعمين باطل من وجوه كثيرة(١) .

• وإنَّما نزل جبريل بالقرآن المعجز في ترتيبه الذي رتبه الله عليه وبألفاظه التي أظهرها الله بها وأخذه عنه رسول الله ﷺ باللغة التي سمعها وبحركاته وسكناته فبلغوه إلى قومه وضمنه الصدور والسطور ، يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (يونس) .

وشهد الله لرسوله بدقة البلاغ عن الله سبحانه فقال : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (الحاقة) .

ثانياً ـ كيفية التلقي عن جبريل عليه السلام :

كان الوحي عند نزوله شدّة وثقل ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحصل له حين تلقي الوحي من الجهد حال يؤخذ فيه عن حال الدنيا من غير موت وكانت تتغير هيئته التي هو عليها إلى هيئة أخرى لم يعهدها قبل أن ينزل عليه الوحي .

ومن صور هذا التغير التي كانت تعتريه وتطرأ عليه :

(أ) الثقل الشديد في جسده ومن ذلك ما رواه زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فكادت فخذه ترض فخذي(١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته فتضرب بجرانها فما نستطيع أن تتحرك حتى يُسرِّي عنه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المزمل) .

---

(١) ومعنى ترض فخذي : أي تدقه وتكسره .

وذكر أبو أروى الدوسي رضى الله عنه قالت : رأيت الوحى ينزل على رسول الله ﷺ وإنه على راحلته فترغو(١) وتفتل(٢) يديها حتى أظن أن ذراعها تتقصم فربما بركت وربما قامت موتدة يديها(٣) حتى يُسرَّى عنه من ثقل الوحى وإنه ليتحدر منه مثل الجمان(٤) .

وقال ابن عمر رضى الله عنه : أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .

(ب) كان يحدث له تغير في وجهه وعينيه وثنايا جسده .

ومن ذلك ما رواه عبادة بن الصامت رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه(٥) وغمض عينيه .

وعن عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى يغط(٦) في رأسه ويتربد وجهه ويجد برداً في ثناياه ويعرق حتى لينحدر منه مثل الجمان .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته تعني النبى ﷺ ينزل عليه الوحى في اليوم شديد البرد فيفصم عنه(٧) وإنَّ جبينه ليتفصد(٨) عرقاً .

وقالت أيضاً : وكان إذا أتاه الوحى أخذه ما كان يأخذه من البُرحاء(٩) .

ويعلل العلماء التغيرات التي كانت تطرأ عليه من إحمرار الوجه والغطيط وثقله على الراحلة وثقل فخذه وتفصد جبينه إلى ضعف قوى البشر عن

---

(١) ترغو ـ أى تصيح من الرغاء وهو صوت الإبل .

(٢) تفتل يديها ـ تديرهما من ثقل ما عليها .

(٣) موتدة يديها ـ وتيد الأرض صوت شدة الوطء على الأرض يسمع كالدوى .

(٤) الجمان ـ بضم الجيم وفتح الميم ـ اللؤلؤ شبهت قطرات عرقه بالجمان لتشابهها في الصفاء والحُسن .

(٥) تربد ـ أى حدث له كحولة في اللون وهى غبرة في سواد .

(٦) الغط والغطيط صوت يخرج من نفس النائم وهو ترديده حيث لا يجد مسافة .

(٧) يفصم عنه أى يقلع وينجلي .

(٨) يتفصد عرقاً ـ أى يجري منه كما يجري الدم من الفصاد

(٩) البرحاء ـ بضم الباء وفتح الراء ـ شدة الحمى ، وقيل شدة الكرب ، وقيل شدة الحر .

تحمل مثل ذلك الوارد العظيم من ذلك الجناب الجليل وأنَّ للنبوّة أثقال ومؤنة لا يحملها إلاَّ أهل القوة والعزم والجلد من الرسل بعون الله تعالى(١).

ونظراً لهذه التغيرات التي كانت تحدث لرسول الله ﷺ فقد كان يتلقى الوحي بإحدى طريقتين.

الأولى: أن ينخلع النبي ﷺ من الصورة البشرية إلى الصورة الملكية بأن يعتريه تغير روحي وبدني يخالف به ما كان عليه قبل وقت نزول الوحي، وفي هذه الحالة كانت تطرأ كما قلنا عدّة تغيرات على النبي ﷺ فكان يتصبب عرقاً ويتغير لون وجهه وغير ذلك.

الثانية: أن ينخلع جبريل عليه السلام من الصورة الملكية التي خُلق عليها بأجنحته الستمائة إلى صورة بشرية فيأخذ عنه النبي ﷺ ما كلّف بتبليغه إيَّاه وقد حدث التغاير في الحالتين، ففي الحالة الأولى يحصل الوعي بما يلقيه عليه سيّدنا جبريل وفي الحالة الثانية تحصل المكالمة(٢).

يقول الإمام الغزالي وسماع النبي الملك عليهما السلام الوحي من الله تعالى بغير واسطة يستحيل أن يكون بحرف أو صوت لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علما ضرورياً بثلاثة أمور بالمتكلم وبأنَّ ما سمعه كلامه وبمراده من كلامه والقدرة الأزلية لا تقصر عن اضطرار النبي والملك إلى العلم بذلك وكما أنَّ كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر فسماعه الذي يخلقه لعبده ليس من جنس سماع الأصوات ولذلك عسر علينا فهم كيفية سماع موسى عليه السلام لكلامه الذي ليس بحرف ولا صوت كما يعسر على الأكمه كيفية إدراك البصر للألوان، أما سماعه عليه السلام فيحتمل أن يكون بحرف وصوت دال على معنى كلام الله تعالى من غير واسطة وإن كان يطلق عليه أنه سماع كلام الله تعالى وسماع الأمة من الرسول ﷺ كسماع الرسول من الملك وطريق الفهم فيه تقديم المعرفة بوضع اللغة التي تقع بها المخاطبة.

---

(١) ابن هشام ـ سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١/ ٥٢.

الفصل الثاني

مراحل نزول القرآن الكريم وكيفيته

مما يزيد القرآن الكريم رفعة وقدراً وسمواً وفضلاً أن تتعرف على الكيفية التي نزل بها ومواطن الحكمة من وراء إنزاله بهذه الكيفية والشكل لأنَّ العلم بنزول القرآن يزيدإيمان المؤمن بالقرآن وأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وإلا فكيف يتحقق التصديق ويثبت اليقين بشيء لا يُعرف مصدره ، فمعرفة نزوله إذن يمثل حجرة الزاوية ومحور الارتكاز للبحث في تاريخ القرآن المجيد .

أولاً : الزمن الذي شرف وحفل بنزول القرآن الكريم هو شهر رمضان المبارك عندما نزل وحى الله الأمين على قلب النبى الكريم في غار حراء(١) .

يتحنث فيه ويخلو بنفسه بهدف التفكر والتدبر في مخلوقات الله وبديع صنعه من أرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج وليل ونهار وما اشتملت عليه هذه المخلوقات من دقة في النظم وإبداع في الخلق .

وبينما هو بهذه الحالة إذ نزل عليه سيدنا جبريل عليه السلام بالنبوّة والرسالة التي شملت الجن والإنس ويأمره بتبليغ دعوته إلى كل العالمين ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف ١٥٨) ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ ﴾ .

وقد أشار القرآن إشارة واضحة إلى زمن نزول القرآن بقوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة ١٨٥) .

بل وصرّح في وضوح إلى جزئية الزمن الذي نزل فيها القرآن فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ

---

(١) غار حراء ـ هو المكان الذي كان يتحنث فيه محمد ﷺ قبل البعثة وهو يبعد عن مكة بعدّة أميال .

مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ (القدر) . وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الدخان) .

ولا شكّ أنَّ هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر التي ارتفع وعلا شأنها وسمت منزلتها حتَّى بلغت ذروة السنام ، فمن أحياها بالعبادة والطاعة استمدّ قدره من قدرها وارتفعت منزلته بارتفاعها .

والآيات الثلاثة التي سبق ذكرها تتفق مع بعضها البعض وتتعانق لتؤكد على المعنى المراد وهو نزول القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر .

ثانياً : صرّح المؤرخون أنَّ الرسالة نزلت على النبي ﷺ وهو في سن الأربعين من عمره ..

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه ثمَّ أمر بالهجرة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين »(١) .

أمَّا كيفية نزول القرآن وعدد مرات هذا النزول وحكمته وأقوال العلماء في ذلك فسوف نتناوله بعد أن نوضح المعاني المختلفة للفعل نزل وما له من دلالات في اللغة العربية .

وقبل أن نذكر أقوال العلماء في كيفية نزول القرآن يجب أن نوضح المعاني المختلفة لمادة نزل في اللغة العربية فلغتنا غنية بكثرة المعاني والمترادفات .

فصاحب القاموس المحيط يشير إلى أنَّ النزول معناه الحلول ، فيقول النزول : الحلول وبهم وعليهم ينزل نزولاً ومنزلاً حل ونزله تنزيلاً وأنزله إنزالاً ومنزلاً كمجمل واستنزله وتنزل ونزل في مهلة والمنزل ما هيئ للضيف أن ينزل عليه الطعام والمنزلة موضع النزول والدرجة(٢) .

أما الراغب فيقول إنَّ النزول في الأصل هو الانحطاط من علو يُقال نزل

---

(١) رواه البخاري .

(٢) الفيروز آبادي ص٣١٢ .

عن دابته ونزل في مكان كذا حط رحله فيه[١] ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (المؤمنون) .

فالمعنى المراد من قوله منزلاً المكان الذي ينزل فيه ، والنزول بالمكان معناه الحلول فيه ، والمتعدي من نزل أنزل ومعناه إحلال الغير في مكان وإيوائه به .

ويُطلق النزول في اللغة ويُراد به إنحدار الشئ من علو إلى سُفل نحو نزل فلان عن الأمر والحق تركه وبالمكان وفيه حلّ ، ويُقال نزل به مكروه أصابه ، ونزل نزولاً هبط من علو إلى سُفل[٢] .

والمتعدى منه يكون معناه تحريك الشئ من علو إلى سفل ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (الرعد ١٧) .

وفي لسان العرب : النزول الحلول وتنزله وأنزله ونزله بمعنى واحد ، والتنزيل الترتيب ، والتنزل النزول في مهلة ، ونزل من علو إلى سفل إنحدر والمنزلة الرتبة ونزل به الأمر حل به [٣] والأسلوب الأمثل لتوضيح معنى النزول هو المجاز اللغوى فيكون معنى النزول هنا الأعلام أو الظهور وهو من باب إطلاق الملزوم وهو النزول وإرادة اللازم وهو الاعلام أو الظهور والعلاقة بينهما الملازمة لأنَّ إنزال شئ إلى شئ يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشئ به إن كان عاقلاً ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقاً .

وقد اتفق البلغاء على أنَّ المجاز بأقسامه أبلغ من الحقيقة ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص[٤] .

ويذكر القطب الرازي إنَّ الإنزال لغة بمعنى الإيواء وبمعنى تحريك الشئ من العلو إلى أسفل وكلاهما لا يتحققان في الكلام فهو مستعمل فيه في معنى مجازي ، فمن قال القرآن معنى قائم بذات الله تعالى وإنزاله أن يوجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها في اللوح المحفوظ ، ومن

(١) المفردات ص٤٩١ .
(٢) المعجم الوجيز .
(٣) ابن منظور ١١/ ٦٦ .
(٤) عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة ص ٣٧ .

قال القرآن هو الألفاظ فإنزاله مجرد إثباته في اللوح المحفوظ وهذا المعنى مناسب لكونه منقولاً عن المعنيين اللغويين ، ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته في السماء الدنيا بعد الإثبات في اللوح المحفوظ وهذا مناسب للمعنى الثاني ، والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحياً أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم(١) .

ويشير الزركشي إلى معنى آخر للإنزال بقوله : (اتفق أهل السُنَّة على أنَّ كلام الله منزل واختلفوا في معنى الإنزال فقيل معناه إظهار القرآن وقيل أنَّ الله أفهم كلامه جبريل وهو في السماء وهو عال من المكان وعلمه قراءته ثمَّ جبريل أدّاه في الأرض وهو يهبط من المكان)(٢) .

القول الأول : أنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا في ليلة القدر جملة واحدة ثمَّ نزل بعد ذلك منجماً في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين سنة على حسب الاختلاف في مدة إقامته بمكة بعد النبوّة(٣) .

وهذا القول هو الذي عليه الجمهور ، وقال به ابن عباس رضى الله عنهما وهو الأصح الأشهر عند أكثر العلماء(٤) .

وقد توافرت الأدلة على هذا النزول وتضافرت وجاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول كما صرحت الآيات بما لا يدع مجالاً للشك على نزول القرآن في ليلة واحدة هى ليلة القدر ، الليلة المباركة إحدى ليالي شهر رمضان المبارك وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الدخان) ، وكما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ (القدر) ، وفي قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة) .

---

(١) مفاتيح الغيب ١ / ٤٨٠

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٢٢٣ .

(٣) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ٢٢٨ والسيوطي ـ الإتقان ١/ ٦٤ .

(٤) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ٢٢٨ والسيوطي ـ الإتقان ١/ ٦٥

وقد تعددت الأخبار الدالة على نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة واحدة نذكر منها :

١ ـ ما نقل عن ابن عباس قال : (أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثمَّ نزل بعد ذلك في عشرين سنة(١) ، ثمَّ قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الفرقان) ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء)) .

٢ ـ وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضاً قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزّة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ »(٢) .

٣ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة ثم أنزل نجوماً »(٣) .

٤ ـ ومن هذه الأخبار ما أخرجه ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال : أوقع في قلبي الشك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وقوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ وهذا أنزل في شوال وفي ذي القعدة وذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس : (إنَّه أُنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثمَّ أُنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام) قال أبو شامة قوله رسلاً أي رفقاء على مواقع النجوم أي على مثل مساقطها يريد أنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثمَّ أنزل على مواقع النجوم مفرقاً يتلو بعضه بعضاً على تؤده ورفقه(٤) .

٥ ـ وأخرج الطبراني والبزار قال : أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي والنسائي .
(٢) رواه الحاكم .
(٣) أخرجه الطبراني .
(٤) السيوطي ـ الإتقان ١/ ٥٥

بيت العزّة في السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم(١).

وهذه شواهد من الأحاديث الصحيحة التي تشهد على نزول القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزوله مفرقاً بعد ذلك على النبي ﷺ وجملة هذه الأحاديث موقوفة على ابن عباس رضى الله عنه إلاَّ أنَّ لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ نظراً لما هو معروف عند علماء الحديث أنَّ قول الصحابي الذي لا مجال للرأى فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات يأخذ قوله حكم المرفوع إلى النبي ﷺ ويثبت الاحتجاج بقوله(٢).

القول الثاني : يذهب إلى القول بأن القرآن نزل إلى سماء الدنيا في عشرين ليلة قدر من عشرين سنة ، وقيل في ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ليلة قدر في كل ليلة منها ما يقدر الله إنزاله في كل السنة ثم ينزل بعد ذلك منجماً في جميع السنة على رسول الله ﷺ(٣).

القول الثالث : أنّه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر ثمَّ نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات ، وقال بهذا الشعبي ، وقال ابن حجر في شرح البخاري والقول الأول هو الصحيح المعتمد .

وهناك قول رابع ذكره الإمام السيوطي عن الماوردي وهو أنَّ القرآن نزل من اللوح المحفوظ جملة واحدة وأنَّ الحفظة نجمته على جبريل في عشرين ليلة وأنَّ جبريل نجمه على النبي ﷺ في عشرين سنة(٤).

وقد أفصح الإمام السيوطي عن الحكمة من نزوله جملة واحدة إلى السماء الدنيا تفخيم أمره وأمر من نزل عليه وذلك بإعلان سكان السموات السبع أنَّ هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قربناه إليهم

(١) السيوطي ـ الإتقان ١/ ٦٤ .
(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١/ ٤٥ وأحمد الشحات ـ فتوحات الرحمن في علوم القرآن ص ٤٠ .
(٣) الزركشي ـ البرهان ٢٢٨ والسيوطي ـ الإتقام ١/ ٦٥ .
(٤) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٦٥ .

لننزله عليهم ولولا أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة عليه ، ذكر ذلك أبو شامة في المرشد الوجيز .

وقال الحكيم الترمذي : أُنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا تسليماً منه للأمة ما كان أبرزهم من الحظ بمبعث محمد ﷺ وذلك أنَّ بعثة محمد ﷺ كانت رحمة فلمَّا خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد ﷺ وبالقرآن فوضع القرآن ببيت العزّة في السماء الدنيا ليدخل في حد الدنيا ووضعت النبوّة في قلب محمد وجاء جبريل بالرسل ثمَّ الوحى كأنّه أراد تعالى أن يسلم هذه الرحمة التي كانت حظ هذه الأمة من الله إلى الأمة(١) .

ويرى بعض العلماء أنَّ القرآن الكريم نُزل أولاً جملة إلى اللوح المحفوظ بدليل قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيد في لَوْحٍ مَحْفُوظ ﴾ ثمَّ نزل بعد ذلك إلى السماء الدنيا ثمَّ نزل مفرقاً على النبى ﷺ ، وعلى هذا يكون قد مرَّ بثلاثة تنزلات من عند الله سبحانه(٢) .

وهو رأى صحيح تؤيده الأدلة العقلية لما روى عن ابن عباس أنه نزل في ليلة القدر جملة واحدة ثمَّ نزل مفرقاً فلا مانع من نزوله جملة ثمَّ نزوله مفرقاً على رسول الله ﷺ في ليلة واحدة .

والنزول الثالث كان بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام حيث نزل على قلب النبى ﷺ طوال أعوام الرسالة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء) ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (النجم ٥) ، وفي هذه المرحلة كان جبريل لا ينزل إلاَّ بأمر الله عزَّ وجلَّ سواء طالت المدة أم قصرت ـ والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ

(١) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٦٥ .

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١/ ٤٧ .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ (مريم) ، وقد نزلت هذه الآية فيما رواه الترمذيّ عن ابن عباس على سؤال رسول الله ﷺ لجبريل لما انقطع عنه قال : « ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » .

وذكر القرطبي عن مجاهد قوله :

احتبس جبريل عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهم ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه ، قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوماً ، وقال مجاهد اثنى عشرة ليلة ، وقيل خمسة عشر يوماً ، وقيل ثلاثة عشر ، وقيل ثلاثة أيام . فقال النبي أبطأت عليَّ حتَّى ساء ظني واشتقت إليك ، فقال جبريل عليه السلام : إنِّي كنت أشوق ولكنِّي عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتبست فنزلت الآية : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ (مريم ٦٤) ، وأنزل ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (الضحى) .

ولا يخفى عليك أنَّ نزول القرآن مفرقاً لقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الشعراء) .

وقوله تعالى : ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ (الأحقاف) .

ففي هذه الآيات السابقة ما يدل دلالة واضحة على نزول القرآن مفرقاً على النبي ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً على خلاف الكتب السماوية السابقة التي نزلت على الأنبياء ، فإنَّ نزولها كان جملة واحدة ولم تنزل

مفرقة ، فالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى كلها نزلت جملة واحدة فلمَّا نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ مفرقاً ، وكان عند قريش علم بالكيفية التي نزلت بها هذه الكتب وقالوا كما حكى القرآن : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان) ففي هذه الآية دليل على أنَّ الكتب السابقة على القرآن نزلت جملة واحدة وإلاَّ لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجماً(١) .

والقول بنزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة هو المشهور والمتفق عليه لدى جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً .

وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك وقال أنّه لا دليل عليه بل الصواب أنّها نزلت مفرقة كالقرآن .

وأقول الصواب الأوّل ، ومن الأدلة على ذلك آية الفرقان السابقة ما جاء من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قالت اليهود يا أبا القاسم لولا أُنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أُنزلت التوراة على موسى فنزلت(٢) .

حكم نزول القرآن منجماً

قلنا أنَّ القرآن الكريم نزل منجماً على قلب النبي الكريم ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل ، وفي نزوله بهذه الكيفية حكم عديدة وأسرار مفيدة منها ماذكره القرآن وأشار إليه في بعض السور والآيات ، ومنها ما لم يفصح عنه والعلماء يتسابقون في البحث عن الحكم والأسرار المرجوة من وراء نزول القرآن بهذه الكيفية ، فمن هذه الأسرار والحكم ما يتعلق برسول الله ﷺ ومنها ما يتعلق بالأمة الإسلامية الناشئة من حيث التدرج في الأحكام الشرعية والقضاء على العقائد الفاسدة والعبادات الباطلة والعادات المذمومة في هذه

(١) عبد الصبور شاهين ـ تاريخ القرآن ص٣٥ ، ومناع القطان ـ مباحث في علوم القرآن ص١٠٠
(٢) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٦٧ .

البيئة العربية ، هذا بالإضافة إلى ما يتعلق بمسايرة الحوادث والطوارئ التي تحدث في أطراف المجتمع بين الحين والآخر .

وسوف نشير إلى ميزات نزول القرآن منجماً على قلب النبى ﷺ فيما يلي :

أولاً : من هذه الحكم ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وتتلخص في الآتي :

(أ) تثبيت قلب النبى ﷺ فإنَّ الوحى إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه(١) .

مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان) ، والمعنى لتقوى به قلبك ، فكان كلّما اشتدّت الخصومة بينه وبين أعدائه واحتدم الشقاق وكثر النزاع وتفاقم الأمر نزل الوحى على النبى ﷺ ليثلج صدره ويطمئن قلبه ويريح نفسه ويدفع عنها الهم والحزن عن طريق التسرّي عنه وتسليته وقد أخذت هذه التسلية صوراً عديدة وأشكال متنوعة كلها تسعى إلى إدخال السرور عليه وإشعاره برعاية الله له وعنايته به وتأييده له .

فمرة يقص عليه من أنباء الرسل السابقين ما يشد من عزمه ويقوي قلبه فيقول سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود ١٢٠) .

ومرة يأمره بالصبر على عناد الكفار والمشركين ويوضح له سنته في الأنبياء السابقين الذين كذبوا وأوذوا فصبروا حتى جاءهم نصر الله ، قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف ٣٥) ، وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام) ، كما يأمره بالصبر على حكم الله مع الوعد بالتأييد والحفظ في قوله : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (الطور ٤٨) .

---

(١) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٣١ .

ومرة يسري عنه ما يحل بنفسه من أسى وحزن فيقول : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر٨) ، ويقول : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ (الكهف) .

وتارة يبشّره بالنصر والغلبة والفوز فيقول : ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ (الفتح) ، وقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ (غافر) ، وفي قوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (المجادلة) .

ثمَّ يخبره الله سبحانه بعد ذلك بنهاية المكذبين الضالين ومصير العاصين والمستكبرين ، فكلا آخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وعلى هذا النظام المتناسق الدقيق في نزول الآيات على قلب النبى ﷺ ينشرح صدره ويمتلئ قلبه بالفرح والسرور والبشر والحبور ولا يجد اليأس إلى قلبه سبيلاً فله في قصص الأنبياء أسوة وفي مصير المكذبين سلوى وفي الوعد بالنصر بشرى .

٢ ـ في نزول القرآن منجماً يتجدد الوحى ويتكرر نزوله ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساء في السفر والحضر وهذا مما يجعل النبى ﷺ راض النفس قرير العين منشرح الصدر لأنَّ تجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز يحدث له السرور ما تقصر عنه العبارة ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام ليدارسه القرآن فكان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ ويعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن فإذا لقيه كان أجود بالخير من الريح المرسلة(١) .

ولقد فاضت نفس النبى ﷺ بالحب والشوق إلى لقاء أمين الوحى جبريل وسأله أن ينزل عليه أكثر مما ينزل وذلك فيما رواه البخاري .

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ٩/ ٤٢ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال لجبريل : « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ (مريم) .

٣ ـ أنَّ في تنجيم القرآن تيسيراً لحفظه وفهمه وقراءته ومعرفة أحكامه وحكمه واطمئناناً للنبي ﷺ الذي يحرص كل الحرص على قراءته بالصورة التي تلقاها عن سيدنا جبريل عليه السلام وكان يتخوف عدم ثباته في قلبه حتى طمأنه الله بقوله : ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنَّا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثمَّ إنَّا علينا بيانه ﴾ (سورةالقيامة) ١٦

ويذكر أنَّ جبريل عليه السلام نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات .

وعن خالد بن دينار قال : « قال لنا أبو العالية : تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإنَّ النبي ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً »(١) .

وهذا مما يساعد على حفظه وفهمه وتدبر آياته والوقوف على أحكامه ، ولو شاء الله سبحانه وتعالى لحفظه النبي ﷺ في لمح البصر دون نسيان ، ولكن حكمته تركت الأمور تسير على سننها الكونية وفق مراده سبحانه .

ويقول الزركشي فإن قلت : كان في القدرة أن أنزل جملة أن يحفظه النبي ﷺ دفعة قلت : ليس كل ممكن لازم الوقوع(٢) .

ثانياً : ما يعود على الأمة الإسلامية الناشئة من حيث مسايرة القرآن الحوادث المختلفة ومعايشته لها وما انطوى عليه من الحكم والأسرار بسبب نزول القرآن بهذه الكيفية فيتلخص في الآتي :

٤ ـ التدرج في أسلوب التربية السليمة وغرس المبادئ والقيم الرفيعة والفضائل المحمودة والآداب السامية والصفات النبيلة في نفوسهم مع انتزاع ما عليه العرب من العقائد الوثنية والعبادات الباطلة والأخلاق الفاسدة

---

(١) مناع القطان ـ مباحث في علوم القرآن ص١٠٦ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ص٢٣١ .

والعادات المذمومة من نفوسهم ، وهذا التدرّج هو إحدى ميزات نزول الوحي منجماً حيث بدأ القرآن بمعالجة الأوضاع التي تمس العقيدة وأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وجنة ونار وكل الغيبيات حتى إذا صحّت عقائدهم طالبهم بمحاسن الأخلاق وكريم الصفات التي تزكو بها النفس ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي وكل الرذائل المذمومة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل) .

وهذه تظهر لنا معالم منهج التدرُّج الذي سلكه القرآن لاستئصال الرذائل وغرس الفضائل في حديث السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : (إنَّما نزل أوّل ما نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً ،ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنّي لجارية ألعب « بل الساعة موعدهم والساعة أوهى وأمر » وما نزلت سورة البقرة والنساء إلاَّ وأنا عنده)(١) .

وقد فطن أحد الباحثين إلى وجود علاقة قوية تربط ما بين سمة التدرج في التشريع الذي نزل بها القرآن وبين القرآن المكي الذي نزل بمكة من حيث أنّ لكل من القرآن الذي نزل بمكة أو المدينة أسلوب يناسبه في الدعوة والهداية والإرشاد(٢) .

ولهذا القول وهذه العلاقة أدلتها من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكية ومدنية وقواعد تشريعية ، ففي مكة شرّعت الصلاة وشرع الأصل العام للزكاة مقروناً بالربا ، قال تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الروم) .

---

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩/ ٤٨ .

(٢) مناع القطان ـ مباحث في علوم القرآن ص١٠٧ .

ونزلت سورة الأنعام وهي مكية تبين أصول الإيمان وأدلة التوحيد وتندد بالشرك والمشركين وتوضح ما يحل وما يحرم من المطاعم وتدعو إلى صيانة وحفظ الحرمات الثلاث الأموال والدماء والأعراض ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (الأنعام).

فأصول المعاملات المدنية نزلت بمكة ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة وأسس العلاقات الأسرية نزلت بمكة ، أما بيان حقوق كل من الزوجين وواجبات الحياة الزوجية وما يترتب عليها من استمرار العشرة أو انفصامها بالطلاق أو بالموت ثمَّ الإرث كل ذلك جاء بيانه في التشريع المدني .

وأصل الزنا حرم بمكة : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ ولكن العقوبات المترتبة عليه نزلت بالمدينة .

وأصل حرمة الدماء نزل بمكة : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ ولكن تفصيل عقوباتها في الاعتداء على النفس والأطراف نزل بالمدينة(١) .

فكل من أجمل في بداية نزوله بمكة من الأحكام الشرعية فصل فيما نزل بالمدينة ، فهذا التدرج في تربية الأمة الإسلامية واقتلع ما فيها من عادات سيئة جعل النفوس تتهيأ لاستقبال هذه الأحكام مرة تلو المرة .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن عمر أنَّه قال : (لما نزل تحريم الخمر ، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قُل فيهما إثمٌ كبير﴾ فدعى عمر رضى الله عنه فقرأت عليه فقال : اللّهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُم سُكَارَى ﴾ فكان منادي رسول الله إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربنَّ الصلاة سكران فدعى عمر رضى الله عنه فقرئت عليه فقال اللّهمَّ بين لنا في الخمر

(١) مناع القطان ـ مباحث في علوم القرآن ص١٠٨ .

بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقُرئت عليه فلمّا بلغ ﴿ فَهَل أَنتُم مُنتَهُون ﴾ قال عمر انتهينا انتهينا)(١) .

وهكذا كان التدرُّج سمة من سمات التشريع السماوي لكي يتمكن من نزع العبادات الباطلة والعادات السيئة من نفوس العرب فهو تطهير لقلوبهم ونفوسهم من أرجاس الجاهلية ليحل محلها شريعة الإسلام الغرّاء ، فالتخلية ثمّ التحلية بالعقائد الحقة والعبادات الصحيحة والأخلاق الفاضلة .

فالتدرُّج أدعى إلى القبول بخلاف ما لو نزل جملة واحدة فإنَّه كان ينفر من قبوله كثير من الناس لكثرة ما فيه من الفرائض والمنهيات(٢) .

٥ ـ في نزول القرآن منجماً معايشة ومتابعة لما يحدث للأمة الإسلامية من تغيرات وما يجد على الساحة من قضايا وتساؤلات ، فهناك كثير من الأسئلة والاستفهامات توجه إلى رسول الله ﷺ بصفته القدوة والأسوة ، سواء أكانت هذه الأسئلة من ناحية المسلمين لغرض التفقه في الدّين ومعرفة أحكامه وشرائعه أو كانت من ناحية أعدائه لغرض التعجيز أو التثبت من نبوته أوأخبر رسول الله ﷺ بغيب ستر عليه كمثل كشف مؤامرة أو فضيحة المنافقين .

ولا شكَّ أنَّ هذه الأسئلة كانت ترفع إلى النبي في أوقات مختلفة وفي أزمنة متعددة فشاءت إرادة الله أن ينزل القرآن منجماً للإجابة على هذه الأسئلة وبيانها تبعاً لأزمانها ، والقرآن زاخر بالعديد من هذه النماذج كما في قوله تعالى في جواب سؤال أعدائه إيَّاه ..

﴿ ويسألونك عن الرُّوح قُل الرُّوح من أمر ربِّي وما أُوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً ﴾.

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ .

﴿ ويسألونك عن الجبال فقُل ينسفها ربِّي نسفاً ﴾ .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٥٣ .

(٢) السيوطي ـ الإتقان ١/ ٦٨ .

﴿ ويسألونك ماذا يُنفقون قُل العفو .. ﴾ .

﴿ ويسألونك عن اليتامى ﴾ .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (البقرة ٢١٩)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ (البقرة ٢١٧) .

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير عن عدى بن حاتم وزيد المهلهل الطائيين يسألان رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله قد حرّم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت ﴿ يسألونك ماذا أحلّ لهم قُل أحلّ لهم الطيّبات ﴾ أى الذبائح التي تُذبح باسم الله بخلاف الأنواع التي ساقتها الآية في سلسلة المحرمات وهى الميتة والدم ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلاَّ ما ذكيتم وما ذبح على النصب .

فكل هذه الشبه وغيرها تتبعها القرآن بالرد عليها وفندها وأزال الغموض عنها .

٦ ـ مجاراة الأقضية والوقائع في وقتها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها كالفصل في قضية الغنائم والأسرى يوم بدر فكلاهما لم يكن عند رسول الله ولا المسلمين سابق علم ، فنزلت الآيات تبين حكم الله في الاثنين معاً .

فنزل في الأولى قوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ .

(سورة الأنفال)

وفي الثانية عندما استشار رسول الله صحابته في أسرى بدر فقال أبو بكر هؤلاء بنوا العم والعشيرة والأخوان وإنِّي أرى أن تأخذ منهم الفدية وعسى أن يهديهم الله ، وقال عمر : أرى أن تمكنني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه

وتُمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة إيضاً حتى يعلم الله عزَّ وجلَّ أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ، فأخذ رسول الله ﷺ برأى أبي بكر فنزل قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . تريد عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ .

ومن أمثلة ذلك ما نزل في خولة بنت ثعلبة التي اشتكت إلى النبى ﷺ من أنَّ زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها وجادلت الرسول ﷺ بأنَّ لها صبية صغاراً إن ضمتهم إلى زوجها ضاعوا وإن ضمتهم إليها جاعوا فنزل حكم الله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾ (المجادلة) .

٧ ـ يرجى من وراء نزول القرآن منجماً معرفة الناسخ والمنسوخ(١) فهناك آيات تناولت أموراً تشريعية وأصدرت فيها حكماً من الأحكام ثم نزلت آيات أخرى تحمل أحكاماً مغايرة عن سابقتها ، ومثال ذلك الأمر بتقديم صدقة قبل مناجاة الرسول في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ (المجادلة ١٢) .

ثمَّ نسخ الحكم بآية أخرى من نفس السورة وهى الآية التالية لها : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (المجادلة)

ومن أمثال الناسخ والمنسوخ الأمر بقيام الليل على التخيير في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ ﴾ (المزمل) ، ثمَّ نسخ هذا الحكم بعد

(١) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٣١ .

سنة كاملة بالتخفيف على المؤمنين بأن يقرءوا ما تيسّر من القرآن ، قال تعالى : ﴿ علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ فاقرأوا ما تيسّر من القرآن .

والأمثلة في معرفة الناسخ والمنسوخ كثيرة ..

ومن الآيات من نسخت حكماً وبقيت تلاوة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾ (البقرة) .

ومن الآيات التي نسخت تلاوة وبقيت حكما ، كما صحّ عن سيدنا عمر الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، وبقي حكم من زنا وهو محصن أن يرجم رجلاً كان أو امرأة وصح ذلك عن رسول الله ﷺ في مواطن عديدة .

٨ ـ في نزول القرآن منجماً معجزة خالدة على مر العصور وكر الدهور في ترتيبه وتناسق سوره وآياته فكانت تنزل الآية أو الآيات على فترات متباعدة من الزمن ، فإذا قرأت القرآن تجده محكم النسج دقيق السبك مترابط المعاني متناسق السور والآيات رصين الأسلوب جزيل الألفاظ فصيح العبارات(١) ، فما من آية منه ألا وهي كالمقدمة لما بعدها أو النتيجة لما قبلها بالرغم من تقادم الزمن بينهما حيث استغرق نزول القرآن ثلاثة وعشرين عاماً ، وكان كلما نزل منه نجم نبّه رسول الله كتاب الوحي بمكان وضعه بين السابق عليه واللاحق له وهو لا يدري ما ستأتي به الأيام .

مصداق ذلك ما أخرجه الترمذي وغيره عن عثمان قال : كان رسول الله ﷺ فيما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا(٢) .

وفي هذا التأليف المعجز والتناسق البديع لجمله وآياته دليل واضح وبرهان

(١) مناع ـ مباحث في علوم القرآن ص١١١ .
(٢) سنن الترمذي كتاب التفسير .

ساطع على أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب الرسول الكريم بلسان عربي مبين ليكون من المنذرين ، قال تعالى : ﴿ ولَو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً ﴾ (النساء آية ٨٢)..

٩ ـ في نزول القرآن مفرقاً بهذه الكيفية تحدي للعرب المشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو ببعضه أو بسورة من مثله ، قال تعالى : ﴿ قُل لأن اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء آية ٨٨).

وصفوة القول أنّه لولا الحكمة الإلهية اقتضت نزوله منجماً بسبب الوقائع لأهبطه إلى الأرض جملة واحدة فهذه حكمة بالغة فما تغنى النذر(١) .

أسباب النزول

من العلوم التي ترتبط ارتباطاً بالقرآن وتاريخه معرفة أسباب نزول الآيات والوقوف علي أسرارها وزمن وقوعها سواء تأخر سبب نزول الآيات عن زمن وقوع الأحداث أم عايشها وعاصرها وقت حدوثها فنزلت بسببها آية أو آيات لبيان ما يتصل بها من أحكام شرعية ، فأسباب النزول هى المناسبات الزمانية والمكانية والشخصية والجماعية التي نزلت فيها آيات معينة متضمنة له أو مجيبة عنه أو مبينة لحكمه زمن وقوعه لإزالة ما استشكل على المؤمنين من أحكام(٢).

ومن فوائد هذا العلم الوقوف على المعنى وإزالة الاشكال(٣) .

ومنها معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أنَّ العبرة بخصوص السبب ومنها أنَّ اللفظ قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه ، فإذا عرف السبب قصر التخصص على ما عدا صورته فإنَّ دخول صورة السبب قطعي وإخراجها بالاجتهاد ممنوع(٤) .

---

(١) الزركشي ـ البرهان ص٢٣٠ .
(٢) صبحي الصالح ـ مباحث في القرآن ص٦١ .
(٣) السيوطي ـ أسباب النزول ص٤ .
(٤) السيوطي ـ الاتقان في علوم القرآن ١/ ٤٥ .

وقال الواحدي : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها(١) .

وقال ابن دقيق العبد : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن .

وقال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإنَّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب وقد اشكل على جماعة من السلف معاني آيات كثيرة حتى وقفوا على أسباب نزولها فزال عنهم الاشكال(٢) .

فمعرفة سبب النزول من الأهمية بمكان ، ومع هذا فإنَّ الآيات في إطارها العام ومضمونها الكلي لا تخرج عن أمرين :

الأول : ما نزل من الله سبحانه ابتداء لهداية البشر ومنه كثير من الآيات المشتملة على قصص الأمم مع أنبيائها ووصف بعض الوقائع الماضية أو الأخبار المستقبلة مما لم يرد فيه سبب نزول .

الثاني : ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة(٣) .

فقد تنزل الآيات بهدف معالجة الواقع أو الفصل في خصومة أو إزالة إشكال وغموض التبس على المسلمين .

فالأسباب المستلزمة للنزول كثيرة ومتعددة فقد يكون السبب في النزول حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ كالخلاف الذي شجر بين جماعة الأوس والخزرج بسبب دسائس اليهود وخبثهم حتى نشب القتال بين الفريقين وتنادوا بالسلاح فنزل قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

(١) الواحدي ـ أسباب النزول ص٨ .
(٢) السيوطي ـ أسباب النزول ص٤ .
(٣) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١/ ١٠٦ .

كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (آل عمران) .

وقد يكون سبب النزول مشاكلة أو غموض في فهم الآيات كالذي أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : ﴿ لا تحسبنَّ الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنّهم بمفازه من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ ، وقال لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون ، حتى بيّن ابن عباس أنَّ الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه وأخبروه بغيره واستحمدوا بذلك إليه .

وأيضاً فهم البعض قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا ثمَّ اتقوا وآمنوا ثمَّ اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ ففهم منها أنَّ الخمر مباحة ، ولو علموا سبب نزولها ما قالوا ذلك وهو أنَّ أناساً قالوا لما حرمت الخمر كيف بمن قُتلوا في سبيل الله وماتوا وهم يشربون الخمر وهي رجس فنزلت هذه الآية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو أعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوّع خيراً فإنَّ الله شاكر عليم ﴾ ، فظاهر هذه الآية يدل على أنَّ الصفا والمروة ليس بفرض ولكن السيدة عائشة ردّت على من فهم ذلك أنَّ سبب نزول الآية أنَّ الصحابة تأثموا من السعي بينهما لأنه من عمل الجاهلية فنزلت الآية توضح أنَّ السعي بينهما من الفرائض والأركان التي لم يتم الحج إلاَّ بها .

وقد يكون سبب نزول الآية خطأ وقع فيه بعض الصحابة كالذي فعله حاطب بن أبي بلتعة عندما بعث بكتاب إلى المشركين بمكة مع امرأة يخبرهم فيه ببعض أسرار النبي ﷺ ولكن الوحي سرعان ما نزل على رسول الله يخبره بالأمر فبعث رسول الله ﷺ بعليّ بن أبي طالب والزبير والمقداد بن الأسود على أثر هذه المرأة قبل أن تصل إلى مكة ليأخذوا منها هذا الكتاب وقد

لحقوا بها وأخرجت لهم الكتاب من عقاصها ، فلما رجعوا إلى النبي ﷺ ووجده من حاطب قال له : ما هذا يا حاطب ؟ فقال لا تعجل عليّ يا رسول الله إنّي كنت ملصقاً في قريش وأكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قراءات يجمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من نسب أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني فقال النبي ﷺ صدق وفيه نزلت هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ

فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ (الممتحنة).

فالأمثلة لبعض الأحوال والمقتضيات التي كانت تنزل الآية والآيات متحدثة عنها أو مبينة لها كثيرة، ولا يعني هذا أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً، فالقرآن لم يتوقف نزوله على الحوادث والوقائع أو على السؤال والاستفسار بل كان القرآن ينزل بعقائد الإيمان وواجبات الإسلام وشرائع الله تعالى في حياة الفرد والجماعة(١).

كما أنَّ المواقف والأحوال المتغيرة والتي ارتبطت بها الآيات عند نزولها لا تعني اقتصار الحكم عليها دون أن يتعدّى إلى غيره، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قررت القاعدة الأصولية ذلك وقد نزلت آيات في أسباب واتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر وآية اللعان في شأن هلال بن أمية وحد القذف في رماة عائشة ثم تعدَّى إلى غيرهم، ومن لم يعتبر عموم اللفظ قال خرجت هذه الآية ونحوها لدليل آخر(٢).

---

(١) مناع القطان ـ مباحث في علوم القرآن ص٧٤.

(٢) السيوطي ـ الاتقان ٣/ ٤٦.

وقال الزمخشري في سورة الهمزة : يجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ليتناول كل ما باشر ذلك القبيح وليكون ذلك جارياً مجرى التعريض .

وقد ذكر الزركشي في نطاق هذا المعنى قوله : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنَّ أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية في كذا فإنَّه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع(١) .

وغاية ما يُقال أنَّ الآية تنزل فتختص بحادث أو شخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره لمن كان بمنزلته وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن كان بمنزلته ، والعام يلي الخاص في الرسم متراخ عنه في النزول والمناسبة(٢) .

معرفة السبب:

أما عن معرفة السبب فالعلماء يعتمدون في معرفته على صحة الرواية عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة .

وقد صرّح الواحدي بأنَّه لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممَّن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها(٣) .

وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال : (اتّق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن ، ويقصد الصحابة رضى الله عنهم) .

وهذا يدل دلالة واضحة على الاحتراز الشديد من السلف الصالح عن الكلام في أسباب النزول خشية الوقوع في الخطأ . أما ما علموا صحته من

---

(١) البرهان ص١٨٥ .

(٢) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٤٨ .

(٣) أسباب النزول ص٨ .

أسباب النزول وثبت لديهم صدقة فقد قاموا بتبليغه أداء الأمانة .

وذكر الحاكم : أنا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنّها نزلت في كذا فإنّه حديث مسند(١) .

وعلى هذا فإنَّ ما روى عن الصحابة في أسباب النزول هو المصدر الأول للرجوع إليه في التفسير ويعتمد عليه المحدثون فيعطونه حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ لأنه لا مجال للرأى فيه(٢) .

وذهب السيوطي إلى أنَّ قول التابعي إذا كان صريحاً في سبب النزول فإنَّه يقبل ويكون مرسلاً إذا صحَّ المسند إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واعتضد بمرسل آخر(٣) .

فوائد معرفة أسباب النزول

يترتب على معرفة أسباب النزول عدّة فوائد هامة منها :

١ ـ أنَّ معرفة سبب نزول الآية يعين على فهمها ودفع الاشكال عنها وهذا ما قرره الواحدي بقوله لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها .

٢ ـ بيان الحكمة التي دعت إلى تشريع حكم من الأحكام وإدراك مراعاة الشرع للمصالح العامة في علاج الحوادث رحمة بالأمة(٤) .

٣ ـ دفع توهم الحصر عما يفيد ظاهرة الحصر كقوله تعالى : ﴿قُل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلاَّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنَّه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ (سورة .....) ، يفيد ظاهرها الحصر مع أنه غير مقصود ولكن الآية في الحقيقة رد على مزاعم المشركين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال عناداً منهم ومحاربة لله ورسوله تحت

(١) السيوطي ـ أسباب النزول ص٥ .
(٢) أحمد الشحات ـ فتوح الرحمن في علوم القرآن ص٨٢ .
(٣) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٤٤ .
(٤) مناع القطان / مباحث في علوم القرآن ص٧٥ .

مسميات باطلة كتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام فنزلت الآية على المضادة لما يزعمون وليس على حصر المحرمات .

٤ ـ من فوائد معرفة سبب النزول امتناع خروج صورة السبب من النص العام فإذا كان لفظ ما نزل عاماً وورد دليل على تخصيصه فمعرفة السبب تقصر التخصيص على ما عدا صورته ولا يصح إخراجها لأنَّه دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد لأنه ممنوع ظنِّي وهذا رأى الجمهور(١) ، ونرى ذلك واضحاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾ (النور)

فهذه الآيات نزلت في السيدة عائشة خاصة أو فيها وفي سائر أزواج النبى ﷺ ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال (إنَّ الّذين يرمون المحصنات) نزلت في السيدة عائشة خاصة ، وعنه أيضاً في هذه الآية أنَّها نزلت في عائشة وأزواج النبى ولم يجعل الله عن فعل ذلك توبة وجعل لما رمي امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبى التوبة ثمَّ قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ... إلى غفورٍ رحيم ﴾ .

وعلى هذا فإنَّ قبول توبة القاذف وإن كان مخصصاً لعموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يرمون المحصنات الغافلات ﴾ لا يتناول بالتخصيص من قذف عائشة أو قذف سائر أزواج النبى فإنَّ هذا لا توبة له لأنَّ دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي .

٥ ـ ومن فوائد معرفة سبب النزول تيسير الحفظ فربط الأسباب بالمسببات والأسماء بالأشخاص والحوادث بالزمان والمكان وكل ذلك خير سبيل لحفظ القرآن الكريم(٢) .

(١) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٤٨ .

(٢) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٤٤

٦ ـ معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين وتوضيح المبهم فيها حتى لا تحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل فيتهم البريء ويبرأ المريب ، ومثاله ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

(سورة الأحقاف - آية ١٧)

فقد ردّت السيدة عائشة على مروان حين اتهم أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر بأنها نزلت فيه فنفت ذلك وقالت لو شئت أن أسمّي الذي نزلت فيه لسمّيته(١) .

ومن هذه الفوائد المرجوة من معرفة أسباب النزول أنَّ الجهل بأسباب التنزيل يوقع في الشبه والاشكالات ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف وذلك مظنة وقوع النزاع(٢) .

ويذكر الشاطبي فيما رواه أبو عبيد عن إبراهيم التيمي قال : خلا عمر ذات يوم فجعل يحدث نفسه كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد ودينها واحد وقبلتها واحدة فقال ابن عباس يا أمير المؤمنين إنَّا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل وإنَّه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيما ترك فيكون لهم فيه رأى ، وإذا كان لهم فيه رأى اختلفوا ، وإذا اختلفوا اقتتلوا .. قال فزجره عمر وانتهره فانصرف ابن عباس ، ونظر عمر فيما قال فعرفه فأرسل إليه فقال أعد علىَّ ما قلت فأعاده عليه فعرف عمر قوله وأعجبه(٣) .

واختلف الأصوليون هل العبرة بعموم اللفظ ، بحيث أنَّ اللفظ العام إذا نزل لسبب خاص تعدّى فيه الحكم من السبب إلى ما مثله وهو المختار كآية الظهار نزلت في سلمة بن صخر وتعدى الحكم إلى كل لاعن ، فقال البعض

---

(١) أخرجه النسائي .

(٢) السيوطي ـ الاتقان ١/ ٦٣ .

(٣) الموافقات ٣/ ٣٤٩ .

بعموم اللفظ استناداً إلى مثل هذه المواقف بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بأنَّ العبرة بخصوص السبب ولا يتعدى الحكم إلى عموم اللفظ إلا لدليل خارجي فهؤلاء يرون أنَّه لولا الدليل الخارجي لوقف حكم الظهار على سلمة وحكم اللعان على هلال .

وقال ابن تيمية : من يرى أنَّ العبرة بخصوص السبب يريد بذلك أنَّ من نزلت فيه الآية دخل دخولاً أزلياً وفعل ما يشبهه تبعاً ، ولا يتصور من مسلم إبطال عموم الكتاب وهذا توجيه حسن ويكون الفرق بين من يقول العبرة بعموم اللفظ أصلاً والآخرين يرون الدخول تبعاً بعد دخول صورة السبب .

وقد يقوم الدليل على تخصيص الحكم بصورة السبب كتفسير النبى ﷺ الظلم بالشرك كما في قوله تعالى : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فلم يرد تناول كل ظلم مع صلاحية اللفظ له ، هذا إذا كان اللفظ عاماً ونزل لسبب خاص .

أمَّا إذا كان اللفظ خاصاً ونزل لسبب خاص فإنَّه لا يتعدى السبب اتفاقاً نحو قوله تعالى ﴿ وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكَّى ﴾ والمراد به الصديق رضى الله عنه .

إعجاز القرآن

القرآن الكريم معجزة خالدة على مر العصور وكر الدهور حيث أنه بلغ طوراً غير مألوف أو معتاد فهو معجزة تناسق ألفاظه ، وفي موضوع تناوله وفي منهجه التدريجي في انتزاع شيء أو الإبقاء على شيء هذا بالإضافة إلى الإبداع في البلاغة والبيان .

ومعنى الإعجاز إثبات العجز وعدم القدرة عن الإتيان بمثله عند الثقلين الجن والإنس أو الإتيان ببعضه(١) .

وقد تناول القرآن هذه القضية في وضوح وصراحة فقال سبحانه : ﴿ قُل لو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (سورة الإسراء ٨٨

وأثبت عجزهم عن الإتيان ببعضه فقال : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (البقرة) ، وقوله : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (سورة .....) .

فهو معجزة معنوية عقلية تدهش العقل وتسليه القدرة عن التشابه والمماثلة فينقاد لما يلقى عليه .

والمعجزة العقلية أبدية لأنها أساسية في الإسلام تتميز بالخلود وتتمثل في القرآن الكريم ودليل حجية القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة التوبة) .

ووجوه الإعجاز في القرآن الكريم أكثر من أن تُحصى أو تُعد فمنها أخباره عن حوادث وقعت في الماضي وستقع في المستقبل ، وقد وقعت بالفعل وإخباره عن بعض مافي الصدور واعتراف أصحابها بذلك ، ومنها نظمه البديع الذي يخالف الكلام المعهود من شعر ونظم ونثر وسلامته من

(١) الفيروز آبادي ـ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ : ٢٠٨

العيوب وفصاحة ألفاظه وصحّة معانيه واستمرار ذلك في كل آياته ، هذا بالإضافة إلى الرباط القائم بين اللفظ والمعنى من حيث اللفظ ومدلوله اللغوي وإيقاع اللفظ ومعناه ، ناهيك عن تأثيره في القلوب والأسماع وعدم الملل من تلاوته مهما ترددت آياته فهو كما قال الشاعر :

كالبدر من حيث التفت رأيته ... يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً

كالشمس في كبد السماء وضوؤها ... يغشي البلاد مشارقاً ومغارباً

فهو النهر الفياض الذي تتفجر منه ينابيع العلوم والمعارف والفنون ، فكل صاحب علم يرى فيه بغيته فالفقيه يرى فيه الفروع مبنية على أصول ثابتة وآية الدين مشاهد على ذلك ﴿ لاَ تَظلمُون ولاَ تُظلَمُون ﴾ .

والأصولي يرى فيه لقواعد الكليّة التي تقاس عليها الجزئيات ..

والمتكلم يرى فيه أسس التفكير القويم ومناهج التعبير المستقيم ومجالاً لكل فكر مستنير .

والمؤرخ يرى فيه أخباراً مسجلة عبرت عن حوادث وقعت وتحققت قبل عصور التدوين .

والمحدث يرى فيه أصول الخبر المقبول والمردود والمتوقف فيه من نحو قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وإنَّ الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ . .

وعالم القراءات يرى فيه كيفية الأداء والوقف والابتداء ومخارج الحروف عملاً بقوله تعالى : ﴿ ورتّل القرآن ترتيلاً ﴾ .

والبلاغي يرى فيه مطابقة الكلام المقتضي الحال أوضح الألفاظ وأبلغ العبارات .

والصوفي يلمح فيه الإشارة إلى مقامات السالكين ومنازل المتوجهين ، قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

والداعية إلى الحق يرى فيه كيفية عرض الدعوة ووسائل الإقناع وأسلوب الترغيب والترهيب وذلك واضح في القرآن الكريم في كثير من آياته .

وأصحاب العلوم الكونية على اختلاف تخصصاتهم يجدون فيه الإشارات اللماحة إلى بعض الحقائق الكونية وما فيه من عجائب وأسرار ، قال تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (العنكبوت) .

فالقرآن معجز في ألفاظه وبنيته وفصاحته وبلاغته ، معجز في تشريعاته وأحكامه في إخباره عن الغيب من علوم وفنون ومعارف وآيات أثبتها الواقع المحسوس .

ويتلخص إعجاز القرآن فيما ذكره الباقلاني في ثلاثة أوجه :

الأول : في الإخبار عن الغيوب وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه ومن ذلك وعد الله لرسوله بأنه سيظهر دينه على الأديان كلها في قوله : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

وقد تحقق ذلك عندما دخل الناس في دين الله أفواجاً وجماعات ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ (النصر) .

ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى انطلقت جيوش المسلمين تفتح البلاد وتزيل الغشاوة عن قلوب العباد ففتحوا قلوبًا غلقاً وآذاناً صماً وأعيناً عمياً وأزالوا مُلك كسرى وقيصر في فارس والروم وارتفعت راية الإسلام في كل مكان .

ومن الأخبار بالغيب .. وعد الله لأهل بدر بالفوز والنصر في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ ، وغير ذلك كثير في القرآن(١) .

(١) إعجاز القرآن ص٤٩ .

الثاني : أنه كان معلوماً من حال النبي ﷺ أنه كان أمياً لا يكتب ولايحسن القراءة وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ثمَّ أتى بجملة ما وقع وحدث من عظميات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه وما قص فيه من أنباء الرسل وأقوالهم .

كل ذلك تضمنه القرآن والرسول أمِّي لا يعرف القراءة أو الكتابة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت) ، فمن أين جاء بهذا التفصيل والبيان لما حدث في الزمن الماضي من أحداث ؟

الثالث : أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه والذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه .

(أ) منها ما يرجع إلى الجملة وذلك أنَّ نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد .

(ب) ومنها ما ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر(١) .

فالأسلوب القرآني يحمل طابعاً لا يلتبس معه بغيره ولا يجعل طامعاً يطمع أن يحوم حول حماه ولو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً وأقرب إليه هدياً وسمتاً وألصق به رحماً وأكثر عنه أخذاً وتعلماً .

وغاية ما يمكن أن يُقال في إعجاز القرآن ونظمه أنَّه تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها .

---

(١) الباقلاني ـ إعجاز القرآن ص٥١ .

الفصل الثالث

جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ

سبق وأن ذكرنا المعنى المراد عن العلماء من كلمة جمع القرآن ، فتارة يُراد منها حفظه واستظهاره في الصدور وتارة يُراد منها كتابته وتدوينه كله سواء كانت كتابته متفرق الآيات والسور أو مرتب الآيات فقط لكل سورة صحيفة أو مرتب الآيات والسور في مصحف واحد .

وقد تحقق المعنيان على عهد رسول الله فحفظ ضبطاً وخلقاً في القلوب والصدور وحفظ كتابه بكل حروفه وكلماته وسوره وآياته في الصحائف والصدور .

أولاً ـ جمع القرآن في القلوب والصدور

كان القرآن ينزل على قلب النبي ﷺ من عند الله عزّ وجلَّ بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وكان كلّما نزلت عليه الآية أو الآيات سارع إلى حفظها ، استمع إليها ووعاها وحفظها وكان جبريل يقرؤه القرآن ورسول الله يردد الآيات بحرص شديد ودقة بالغة في استعجال وسرعة مخافة أن تفوته كلمة أو يفلت منه حرف وما زال على هذه الحالة حتى طمأنه الله سبحانه بقوله : ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴿١٦﴾ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فإذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ (القيامة) .

فعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدّة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله سبحانه ﴿ لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴿١٦﴾ ﴾(١) .

قال الشعبي : عجل يتكلم به من حبه إيَّاه فكان يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره فأمر بأن ينصت حتى يقضي إليه وحيه ووعد بأنَّه آمن من نقلته منه بالنسيان أو غيره فقال ﴿ إنَّ عَلَيْنَا

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩/ ٦٤ .

جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ أي جمعه لم في صدرك ، فإذا قرأناه أي بيَّناه ، وقيل بعد قراءة الملك عليك ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ أي استمع له وأنصت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ ﴾ بيانه بلسانك ويحتمل أن يراد بالبيان مجملاته وتوضيح مشكلاته(١) .

فكانت شدّة الموقف عند نزول الوحي عليه وما يلاقيه من الكد العظيم وهيبة الوحي الكريم سبباً في تحريك لسانه وشفتيه كي لا ينسى . حتى جمع رسول الله ﷺ القرآن في قلبه الشريف فكان أوّل الحفاظ له العاملين به السائرين على نهجه الواقفين على حدوده ، فكان يمس به الليل ويرتله في الصلاة ويحكم به بين الناس ، فكان يحيي به الليل ويرتله في الصلاة ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ (المزمل) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴿٧٩﴾ ﴾ (الإسراء) ، كما كان يحكم به الناس في كافة شئونهم الدينية والدنيوية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾ ﴾ (سورة النساء) .

وكان سيدنا جبريل يعارضه القرآن في كل عام مرة وعارضه في العام الأخير مرتين لحديث السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : (إنَّ النبى استرَّ لي أنَّ جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وإنَّه عارضني العام مرتين ولا أراه إلاَّ حضر أجلي) ، والمراد يستعرضه ما أقرأه إيَّاه وفي المعارضة معنى المفاعلة ، وهذا يدل على أنَّ كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع .

وكان رسول الله ﷺ بعد نزول الوحي إليه وحفظه الآية أو الآيات يقوم بتبليغها إلى الناس ويقرئ من أصحابه رضى الله عنهم من كان يصلح لذلك ويستحفظهم إيَّاها في دقة وأمانة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

(١) المصدر السابق ١٩/ ٦٤ .

الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (سورة الحاقة) .

فقد نقله الروح الأمين إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ثمَّ نقله الصحابة عن النبى > بعد أن استودعه قلوبهم ثمَّ تتابعت الأجيال تنقله عبر القرون من الصدور والسطور حتى وصل إلينا مثل ما نزل لم يزد حرفاً ولن ينقص وسنورثه لمن بعدنا بهذه الهيئة .

وكان القرآن ينزل على رسول الله ﷺ نجوماً ثلاث آيات وخمس آيات وأكثر وأقل ، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك(١) جملة ، وصحَّ نزول عشر آيات من أول سورة المؤمنين جملة ، وصحَّ نزول أولى السور وحدها وهى بعض آية(٢) .

وأخرج البيهقي في الشعب من طريق أبي خلدة عن عمر قال : (تعلموا القرآن خمس آيات فإنَّ جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى خمساً خمساً) .

وقد سبق أن ذكرنا بعض الحكم والأسرار لنزول القرآن بهذه الكيفية وقد تلقف الرسول ﷺ القرآن عن طريق المشافهة والحفظ ، وهى الأصل في اعتماد النص القرآني وتوثيقه عن طريق السماع والعرض ، فالنبى ﷺ أمي لا يعرف القراءة والكتابة حتى نزل عليه الوحى الأمين فعلمه القراءة بقدرة العليم الحكيم سبحانه وتعالى عندما نزل عليه بقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق) .

---

(١) الإفك : كل أمر مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه ومنه الكذب ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ (النور : ١١) .

(٢) السيوطي ـ الاتقان ١ / ٦٨ .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أميَّة النبي ﷺ في صراحة ووضوح وهي خاصية حسنة وميزة فريدة تثبت صدق ما جاء به رسول الله ﷺ وأنه من عند الله وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾ (العنكبوت) . فهو جحود قائم على الباطل لستر الحق .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

كما أشار القرآن إلى بعثته في الأميين بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ .

والأمّي يعول على حافظته فيما يهمه أمره ويعينه استحضاره وجمعه وبخاصة إذا أوتي من قوّة الحفظ والاستظهار ما ييسر له هذا الجمع ، وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن تتمتع بقوة الذاكرة وصفاء السجية فكانت تستعيض عن أميتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسجل صدورها[١] .

وهنا يجرنا الحديث عن المعنى المراد من الأمية وهل كان النبي ﷺ يعرف القراءة والكتابة أم لا ، وهذه مسألة اختلاف بين العلماء قديماً وحديثاً ، ومن ثمَّ سنتناول هذه المسألة في شيء من الإيجاز .

* * *

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ ـ ٢٤٠ .

الأمية عند النبي ﷺ إبان بعثته

لا ريب أنَّ الأمية كانت شائعة ومنتشرة بين العرب في شبه الجزيرة العربية كما كانت الكتابة قليلة نادرة وتكاد تكون منعدمة إلا من أفراد قلائل عرفوا الكتابة والقراءة قبل ظهور الإسلام وهم سبعة عشر رجلاً حسب رواية البلاذري : دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب .. عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة الجراح وطلحة ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة وعتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو أخو سهل بن عمرو العامري عن قريش وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وأيان بن سعد بن العاصي بن أمية وخالد بن سعيد أخوه وعبد ا بن سعد بن أبي السرح العامري وحويطب بن عبد العزى العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، ومن حلفاء قريش العلاء بن الحضرمي(١) .

وكأنَّ ا سبحانه كان يعد هذه الفئة القليلة قبل البعثة لتقوم بتدوين القرآن وكتابته بعد أخذه عن رسول ا ، لأنَّ الكتابة أدعى إلى حفظ التنزيل وضبطه ، وأبعد عن ضياعه ونسيانه .

وجاء الإسلام وأكد هذه الحقيقة وهي تفشي الأمية بين العرب بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة - آية ٢) .

ويقول الجاحظ في حديثه عن العرب : « وكانوا أميين لا يكتبون مطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر »(٢) .

---

(١) فتوح البلدان ص٤٥٧ .

(٢) الجاحظ ـ البيان والتبيين ٣ / ٤٩١ .

ولكن يجب أن لا يفهم أنَّ العرب كلهم كانوا أميين لا يجيدون في القراءة والكتابة فهذا خطأ شائع ينافي الحقيقة ، فهناك كثير من القرائن والأدلة التي تدل على وجود الكتابة بين العرب خلال تلك الفترة ولكنها كانت مقصورة على فئة قليلة سبق ذكرها .

فالعهود والمواثيق التي كانت تحرر بين قبائل العرب لوقف الحرب والاعتداء وللتجارة والبيع والشراء والمعاملات ووجود المعلقات السبع لكبار شعراء العرب(١) ، ومكاتبة الرقيق بشأن بيعه أو عتقه والرسائل التي كان يبعثها النبي ﷺ إلى الملوك والرؤساء للدخول في الإسلام(٢) .

كل هذا يدل دلالة واضحة على وجود الكتابة بين العرب قبل الإسلام ، هذا بالإضافة إلى إشارات القرآن في كثير من آياته بشأن القراءة والكتابة(٣) ما يدل على وجودها بينهم إذ لا يعقل أن يخاطب العرب بها ولم يكن لهم سابق علم(٤) .

وبعث الرسول ﷺ وقد ولد أمياً ونشأ أميّاً وعاش أمياً ولم يكن يوماً من الأيام يتلو كتاباً أو يقرأ صحفاً ولم يخطه بيمينه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (العنكبوت) ، والآية صريحة وواضحة خالية من الغموض والالتواء .

قال أبو حيان في تفسيره ولا تخطه بيمينك أى لا تقرأ ولا تكتب بيمينك وهي الجارحة التي يكتب بها وذكرها زيادة تصوير لما نفى عنه من الكتاب إذاً لارتاب المبطلون أى لو حصلت الكتابة لحصلت الريبة .

---

(١) قصائد الشعر التي حازت قصب السبق في جودة الشعر ونسقه كانت تكتب وتعلو في جوف الكعبة .

(٢) إنطلاقاً من عالمية الإسلام وعمومه كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والرؤساء في الأرض .

(٣) فقد ورد في القرآن مادة كتب وما اشتق منها ٣٠٠ مرة ومادة قرأوا ما اشتق منها ٨٠ مرة .

(٤) جواد علي ـ تاريخ العرب في الإسلام ١ / ١٤ .

وكان أميّته ﷺ أكبر دليل على صدق دعوته ورسالته حتى لا يتهم بأنه كتبها أو جاء بها من عنده كما حكى القرآن عن المشركين في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ (الفرقان) .

وقد علّل بعض البصريين أميّة النبي ﷺ بقوله : « إنَّ الله إنَّما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ولا يتكلف الخطابة ولا يتعمد البلاغة لينفرد الله بتعلمه الفقه وأحكام الشريعة ويقصر على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر وعيافة الطير من العلم بالأنواء وبالخيل وبالأنساب وبالأخبار وتكلف قول الأشعار ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم وتكلم بالكلام العجيب كان ذلك أدل على أنه من الله وزعم أنَّ الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب والكاتب ومن الخطيب الناسب ولكن ليجعله نبياً ليتولى أمر تعليمه بدا هو أزكى وأنمى ، فإنما نقصه ليزيده ومنعه ليعطيه وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير(١) .

ولكن هل ظلَّ النبي ﷺ على أميته بعد بعثته أم أنه قرأ وكتب بعد ذلك ، وهذه قضية أختلف فيها العلماء فقيل أنه لم يكن يُحسن الكتابة ، واختاره البغوي في التهذيب وقال أنه الأصح .

وادَّعى بعضهم أنَّه ﷺ صار يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها يسبب المعجزة لهذه الآية فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب(٢) تعرف الكتابة حينئذ(٣) .

وقال أبو حيان وأكثر المسلمين على أنَّ رسول الله ﷺ لم يكتب قط ولم يقرأ بالنظر في كتاب(٤) .

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ١ / ٥٧٤ .

(٢) أي أصبح الشك في أنه لم يقرأ ولم يكتب أمراً ظاهراً يشهد على صدق ما جاء به من عند الله .

(٣) الألوسي ـ روح المعاني ١ / ٣٥ .

(٤) البحر المحيط ٧ / ١٥٦ .

وبهذا يتضح أنَّ أميَّة النبي ﷺ قضية مختلف فيها بين العلماء ، والقول الذي تطمئن إليه النفس أنَّ أميته قبل البعثة وحتى نزول الوحي عليه حقيقة لا غموض فيها ولا التواء لذا نزل الأمر عليه بالقراءة في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ ، فعلمه الله القراءة لكي يتمكن من الأخذ عن الوحي وعند ذلك اتخذ لنفسه كتاباً يكتبون عنه القرآن فكان يقوم بالإملاء ويقومون هم بالكتابة . فلما انتشر الإسلام واشتهر أمره واطمأنَّ الناس إلى أن ما جاء به محمد ليس من كلام البشر ولا الكهان ولا الجن ولا الشعراء وظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله فإنَّه خلال تلك الفترة لا نستبعد أن يكون قد عرف شيئاً عن الكتابة ولو قليل معرفة عفوية لا معرفة اتقان وحذق .

جهود النبي ﷺ في إزالة الأمية من الصحابة

سعى النبي ﷺ إلى إزالة الأمية من بين الصحابة وحرص على تعليمهم حرصاً شديداً فكان كلَّما نزلت فيه آية تلاها على أسماع الصحابة في تأن وتمهل ، كما أمره الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ وقُرآناً فرَّقناه لتقرأه على النَّاس على مكث ونزَّلناهُ تنزيلاً ﴾ ، وهذه الطريقة تيسر حفظه على أمته ﷺ ، هذه الأمة الأميّة التي لا تكتب ولا تقرأ فكانت قراءته بهذه الكيفية خير عون على حفظه .

فعن أنس بن مالك رضى ا٢ عنه أنَّ نبيّ الله ﷺ قال لأبي بن كعب رضى الله عنه : « إنَّ ا٢ أمرني أن أقرئك ، وفي رواية أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا ، قال : آ٢ سماني لك ؟ قال : نعم فبكى »(١) .

كما كان رسول الله ﷺ يجب أن يسمع القرآن من الصحابة لأمور كثيرة سنذكرها في موضعها من البحث ، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود

---

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٤ / ٨ .

رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أقرأ علىّ ، قال : قلت أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال إنّي أشتهي أن أسمعه من غيره ، قال : فقرأت النساء حتى إذا بلغت فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » قال : كف وامسك فرأيت عينه تزرفان »(١) .

ويتجلى حرص الرسول ﷺ الشديد على تعلم الصحابة القرآن والعمل على حفظه ومدارسته في بعثه قراء الصحابة رضى الله عنهم إلى المدن والأمصار ليعلموا الناس القرآن الكريم ، فقد بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته إليها ليعلما مَن أسلم هناك القرآن والإسلام ، كما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته فكان يدفع أصحابه إلى التعليم ويسهل لهم السبل إلى ذلك وقد ورد أنَّ المسلمين في غزوة بدر أسروا ستين مشركاً فقبل رسول الله ﷺ فداء الواحد منهم أن يعلم عشرة من الصحابة الكتابة والخط فأصبحت الكتابة تعدل الحرية .

ثانياً : حفاظ القرآن في عصر الرسول ﷺ

احتل القرآن الكريم من قلوب الصحابة المنزلة العالية والمكانة السامية والعناية الفائقة فقدموه على كل غالي ونفيس لديهم وتسابقوا إلى حفظه وسارعوا إلى مدارسته وفهمه والتفقه فيه فقد أرشدهم القرآن إلى أن تعهده بالتلاوة الصحيحة من كمال الإيمان فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١) ﴾ (البقرة) .

ومن هنا تسابق الصحابة إلى حفظه وتلاوته فكانوا يهجرون المضاجع للتنعم بتلاوته فعاشوا في ظلاله الوارفة سعداء آمنين راضين عن الله وعن أنفسهم كل الرضا وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٩ / ٧٥ .

فإذا أقبل الليل تعهدوا القرآن بالحفظ والتلاوة فكان يسمع لبيوتهم دوياً كدوي النحل بالقرآن فأمسوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار .

ولا غرو فالقرآن الكريم بحر واسع خضم منه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهاره وجداوله وفيه تكمن السعادة المطلقة بكل معانيها .

يقول الامام علي : « مَن أراد الدنيا فعليه بالقرآن ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن »(١) . وكان رسول الله ﷺ يحثهم على حفظه وتلاوته بقوله : « خيركم مَن تعلم القرآن وعلمه »(٢) .

ويستنهض الهمم ويشحذ العزم على درسه والتفقه فيه ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله سبحانه فيمن عنده »(٣) .

كما كان يحذرهم من نسيانه ويرغبهم في تعليمه ـ فعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « تعهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها »(٤) .

وكان إذا نزلت الآية أو السورة سارع رسول الله ﷺ إلى قراءتها على أصحابه بعد أن يفصم عنه الوحى ، إذ كانت المشافهة هي الأصل في توثيق النص القرآني عملاً بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

ثم يبدأ التدوين في الأدوات المختلفة فلهذا كان لا يمضي على نزول الوحى بالقرآن وقت قصير حتى يصبح ما نزل منه محفوظاً في صدور

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي / علي زين العابدين ص ٥١

(٢) أخرجه الإمام البخاري ١٩ / ٨٩ .

(٣) الإمام مسلم ٧ / ٢١ .

(٤) الإمام مسلم ٦ / ٧٨ .

كثير من الصحابة ثم يعرضون ما حفظوه على رسول الله ﷺ ، توثيقاً وتوكيداً .

فعن شقيق بن سلمة قال : خطبنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقال : والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة . والله لقد علم أصحاب النبى ﷺ أنّي من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم ، قال شقيق : فجلست في الحلقة أسمع ما يقولون فما سمعت راوى يقول غير ذلك(١) .

وروى الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال النبى ﷺ لأُبىّ(٢) : « إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ قال وسماني ؟ قال نعم فبكى ؟(٣) .

في الحديث تعجب أبىّ بن كعب من أنَّ الله سبحانه يذكر اسمه ولهذا بكى إما فرحاً وسروراً لذلك وإما خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة .

وقال القرطبى : تعجّب أبىّ من ذلك لأنَّ تسمية الله له ونصه عليه ليقرأ عليه النبى ﷺ تشريفاً عظيماً ولذلك بكى . والمراد بالعرض على أبىّ ليتعلّم أبىّ منه القراءة ويثبت فيها وليكون عرض القرآن سُنَّة وللتنبيه على فضيلة أبىّ بن كعب وتقدمه في حفظ القرآن ، فليس المراد أن يستذكر منه النبىّ ﷺ شيئاً بذلك العرض » .

وبلغ حرص الصحابة على القرآن وعنايتهم به الغاية والمنتهى حتى أنَّ الواحد منهم إذا حالت الأمور بينه وبين سماع القرآن من فم الرسول ﷺ كان ينيب عنه من يقوم بسماع القرآن من فم الرسول ﷺ مباشرة وذلك حرصاً منهم حتى لا يفوتهم شيء من كتاب الله عزّ وجلّ .أخرج البخاري

---

(١) ابن كثير ـ فضائل القرآن ص١٥٤ .

(٢) أبى بن كعب بن قيس بن عبيد بن النجار شهد العقبة وبدرا ومن كتاب الوحي لرسول ﷺ

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٤ / ٢٨٠ .

في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كنت أنا وجار لي من لأنصار في بني أميَّة بن زيد (وهي من عوالي المدينة) وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك(١) .

وتمخض هذا الاهتمام البالغ من الصحابة والدقة والتحفظ الشديد بالأخذ عن رسول الله مباشرة عن معرفة الصحابة بكل ما يخص السورة والآية من القرآن من حيث الزمان والمكان وسبب نزولها وفيما أُنزلت ، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن مسروق قال عبد الله رضى الله عنه : والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ولو أعلم أحد أعلم منى بكتاب الله تبلغه الأبل لركبت إليه .

وقد اعتمد الصحابة في اعتنائهم بالقرآن وحفظهم له على الذاكرة وقوّة الحفظ ، وذلك في المقام الأول ثمَّ بعد ذلك على التسجيل والتدوين وهذا تحقيق لما وعد الله به نبيه ﷺ أن يجعل من قلوب أتباعه أناجيل تحوي كتابه(٢) .

ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : « إنَّ ربي قال لي قُم في قريش فانذرهم فقلت له : أى رب اذن يثلغوا رأسي حتى يدعوه خبزة فقال : إنِّي نبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان فابعث جنداً ابعث مثلهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك وانفق ينفق عليك .

يقول الإمام ابن الجزري : (ثمَّ إنَّ الاعتماد في نقل القرآن علي حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب وهذه خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة) .

---

(١) البخاري في كتاب العلم ١٩ / ٦٠ .

(٢) حسن عبد الحميد الوتد ـ هداية الرحمن في علوم القرآن ص٣٧ .

ثمَّ يقول : (ولما خصَّ الله تعالى بحفظه من شاء من أهله أقام له أئمة ثقاة تجردوا النصيحة وبذلوا أنفسهم في اتقانه وتلقوه عن النبى حرفاً حرفاً لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ولا إثبات ولا خوفاً ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم وكان منهم من حفظه كله ومنهم من حفظ أكثره ومنهم من حفظ بعضه ، كل ذلك في زمن النبى ﷺ(١) .

ولهذا وجدنا جماً غفيراً وعدداً وفيراً قد جمع القرآن كله في حياة الرسول ﷺ حفظاً وتلاوة منهم الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة وأبو هريرة وابن عمر وابن عباس وعمرو بن القاضي وابنه عبد الله ومعاوية وابن الزبير وعبد الله بن السائب وعائشة وحفصة وأم سلمة رضى الله عنهم . وهؤلاء كلهم من المهاجرين وحفظ القرآن من الأنصار في حياته ﷺ أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو الدرداء ومجمع بن حارثة وأنس بن مالك وأبو زيد الذي سئل عنه أنس فقال إنه أحد عمومتي ، وقيل بعضهم أكمل حفظه للقرآن بعد وفاة النبى ﷺ(٢) (استدراك ٣) .

ومما يؤكد كثرة حفاظ القرآن الكريم في عهد الرسول على ما صرحت به المصادر الأصلية من أعداد وفيرة وجموع غفيرة من القراء وحفاظ القرآن قد قُتلوا في معركتى بئر معونه(٣) في العام الرابع من الهجرة ومعركة اليمامة عام ١١ هجرية (إحدى عشر من الهجرة) ، فقد بلغ عدد الذين قُتلوا في بئر معونة سبعين رجلاً من فقهاء الصحابة وقراء القرآن(٤) ، وقيل أربعين(٥) وكانوا من خيار المسلمين بعثهم الرسول إلى

---

(١) النشر في القراءات العشر ١ / ٧ .
(٢) ابن الجزري ـ النشر في القراءات العشر ١ / ٧ .
(٣) بئر معونة أرض لبني سليم بين مكة والمدينة كان بها قصة الرجيع.
(٤) البخاري ٥ / ١٩٧ .
(٥) ابن هشام ـ السيرة النبوية ٣ / ٨٦ .

هذا المكان ليعلموا الناس أمور دينهم ، كما بلغ عدد الذين قُتلوا من المسلمين في معركة اليمامة ستمائة في أصح تقدير(١) من بينهم سبعون من قراء الصحابة الحافظين للقرآن(٢) .

وقال النووي أنه ثبت في الصحيح أنَّه قُتل يوم اليمامة سبعون مِمَّن جمع القرآن ، وكان اليمامة قريباً من وفاة الرسول ﷺ(٣) .

وروى البخاري عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك رضى الله عنه مَن جمع القرآن على عهد النبى ﷺ قال أربعة كلهم من الأنصار .. أبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد(٤) .

وقد ذكر الإمام البخاري ثلاث روايات لهذا الحديث جمعت سبعة من القراء .

فهذا الحديث ظاهره أنه لم يجمع القرآن من الصحابة سوى هؤلاء الأربعة فقط مع أنَّ حقيقة الأمر تخالف ذلك ، فكثير من المهاجرين جمعوا القرآن حفظاً وتلاوة ولعل المراد : لم يجمع القرآن من الأنصار ولهذا ذكر الإربعة من الأنصار .

والدليل على أنَّ من المهاجرين من جمع القرآن أنَّ الصديق رضى الله عنه قدمه رسول اللهِ ﷺ في مرضه إماماً على المهاجرين والأنصار مع أنه قال : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فلولا أنه كان أقرأهم لكتاب الله لما قدمه عليهم(٥) .

وأخرج الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره»(٦) .

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٦ / ٣٣٠ ، وابن الأثير ـ الكامل ٢ / ٣٣٦ .
(٢) السيوطي ـ الإتقان ١ / ٩١ .
(٣) صحيح مسلم ١٥ / ١٩ .
(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩ / ٦٠ .
(٥) ابن كثير ـ فضائل القرآن ص١٦٠ .
(٦) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٤١ .

فالحصر الوارد بالحديث حصر نسبي أتى به للمبالغة وليس حقيقياً ، وإنما خصَّ أنس الأربعة بالذكر لشدَّة تعلقه بهم دون غيرهم أو لكونهم كانوا في ذهنه دون غيرهم(١) .

ولهذا استُنكر جماعة من الأئمة الحصر في أربعة . وقال المازري(٢) لا يلزم من قول أنس لم يجمعه غيرهم أن يكون هو الواقع لأنَّ التقدير أنه لا يعلم أنَّ سواهم جمعه وإلاَّ كيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم في البلاد وهذا لا يتم إلاَّ أن كان لقى كل واحد منهم على انفراده وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل جمع القرآن في عهد النبى ، وهذا أمر في غاية البعد في العادة . وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع »(٣) .

وقد أجاب القاضي أبو بكر الباقلاني بعدَّة أجوبة ليفهم الحديث في إطاره الصحيح :

الأول : أنه لا مفهوم له فلا يلزم أن لا يكون غيرهم جمعه .

الثاني : المراد لم يجمعه على جميع الوجوه والقراءات التي نزل بها إلاَّ أولئك .

الثالث : لم يجمع ما نسخ منه بعد تلاوته وما لم ينسخ إلاَّ أولئك وهو قريب من الثاني .

الرابع : أنَّ المراد بجمعه تلقيه من فم الرسول ﷺ لا بواسطة بخلاف غيرهم فيحتمل أن يكون تلقي بعضه بالواسطة .

الخامس : أنهم تصدوا لإلقائه وتعليمه فاشتهروا به وخص حال غيرهم

---

(١) السيوطي ـ الإتقان ١ / ١١٣ .

(٢) الإمام المازري هو عبد الله محمد بن عليّ بن عمر بن محمد التميمي المشهو بالمازري نسبة إلى مازر بصقلية ، ولد بإفريقيا حوالي سنة ٤٤٣ هـ ، ومن آثاره العلمية المعلم بفوائد مسلم ، وتوفى بمدينة المهدية عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وعمره ثلاثة وثمانين سنة .

(٣) السيوطي ـ الإتقان ١ / ١١٣ .

عمن عرف حالهم فحصر ذلك فيهم بحسب علمه وليس الأمر في نفس الأمر كذلك أو يكون السبب في خفائهم أنهم خافوا مماثلة الرياء والعجب وأمن ذلك من أظهره .

السادس : المراد بالجمع الكتابة فلا ينفي أن يكون غيرهم جمعه حفظاً عن ظهر قلب ، وأمَّا هؤلاء فجمعوه كتابة وحفظوه عن ظهر قلب .

السابع : المراد أن أحداً لم يفصح بأنه جمعه بمعنى أكمل حفظه في عهد الرسول إلاَّ أولئك بخلاف غيرهم فلم يفصح بذلك لأن أحداً منهم لم يكمله إلاَّ عند وفاة رسول الله ﷺ .

الثامن : أنَّ المراد بجمعه السمع والطاعة له والعمل بموجبه وقد أخرج أحمد في الزهد أنَّ رجلاً أتى أبا الدرداء فقال إنَّ إبني جمع القرآن فقال اللهمَّ غفراً إنما جمع القرآن مَن سمع له وأطاع .

وقال الإمام ابن حجر : أنَّ غالب هذه الاحتمالات تكلّف ولاسيما الأخير وقد أشرت إلى احتمال آخر وهو أنَّ المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط فلا ينفي ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين ومن جاء بعدهم ويحتمل أن يُقال إنما اقتصر عليهم أنس لتعلق غرضه بهم ولا يخفى بعده والذي يظهر من جملة الأحاديث أنَّ أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله ﷺ وقد تقدم في المبعث أنه بنى مسجداً بفناء داره فكان يقرأ فيه القرآن وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك وهذا مما لا يرتاب فيه مع شدة حرص أبي بكر على تلقي القرآن من النبى ﷺ وفراغ باله له وهما بمكة وكثرة ملازمة كل منهما الآخر حتى قالت عائشة في الهجرة أنه ﷺ كان يأتيهم بُكرة وعشية(١) .

وأيضاً علىّ بن أبي طالب الذي جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبى ﷺ ، وأخرج النسائى بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩ / ٦٢ .

قال : جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة فبلغ النبى ﷺ فقال : « اقرأه في شهر »(١) .

وقد ذكر أبو عبيدة في كتاب القراءات : القراء من أصحاب النبى ﷺ فعدَّ من المهاجرين الخلفاء الأربعة وطلحة وسعداً وابن مسعود وحذيفة وسالماً وأبا هريرة وعبد الله بن السائب والعبادلة ، ومن النساء عائشة وحفصة وأم سلمة ولكن بعض هؤلاء أكمله بعد النبى ﷺ فلا يرد على الحصر المذكور في حديث أنس(٢) .

فالبرهان قائم والدليل واضح والحجة قاطعة على الأعداد الوفيرة من حفاظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ سواء كانوا من المهاجرين أو الأنصار .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أنَّ سبعين رجلاً من الصحابة قُتلوا في غزوة بئر مئونة كان يُقال لهم القراء(٣) .

أما حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما الذي رواه الشيخان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبىّ بن كعب رضى الله عنهم » ، فهناك أقاويل للعلماء يحاولون بها الوقف على المعنى المراد من الحديث .

فيقول الكرماني خذوا القرآن عند أربعة يحتمل أنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعده أى أنَّ هؤلاء الأربعة يبقون حتى ينفردوا بذلك وقد ردَّ عليه بأنهم لم ينفردوا بل الذين مهروا في تجويد القرآن بعد العصر النبوي أضعاف المذكورين ، وقد قُتل سالم مولى أبي حذيفة في وقعة اليمامة ومات معاذ في خلافة عمر ومات أبىّ وابن مسعود في خلافة عثمان وقد

(١) النسائي .

(٢) الصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ١٢ / ٣١٦ تحقيق عبد المعز الجزار ، والسيوطي ـ الإتقان ١ / ١١٤ .

(٣) انظر البخاري في كتاب المغازي غزوة بئر معونة .

تأخر زيد بن ثابت رضي الله عنه وانتهت إليه الرئاسة في القراءة وعاش بعدهم زمناً طويلاً ، فالظاهر أنه أمر في الأخذ عنهم في الزمن الذي صدر فيه ذلك القول ولا يلزم من ذلك ألاَّ يكون أحد في ذلك الوقت شاركهم في حفظ القرآن بل الذين يحفظون مثل الذي حفظوه وأزيد(١) .

وفي إطار الاحتمالات الموضوعة للمعنى المراد من الحديث يرى البعض أنَّ سبب الحصر في الأربعة أنَّ هؤلاء أكثر ضبطاً لألفاظه وأتقن لأدائه وإن كان غيرهم أفقه في معانيه منهم أو لأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذه منه ﷺ مشافهة وغيرهم اقتصروا على أخذ بعضهم من بعض أو لأنَّ هؤلاء تفرغوا لأن يؤخذ عنهم أو لأنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعد وفاته من تقدم هؤلاء الأربعة وتمكنهم وأنهم أقعد من غيرهم في ذلك فليؤخذ عنهم(٢) .

وقد يكون المراد من قول أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ هؤلاء جمعوه على جميع الوجوه .

والقراءات التي نزل بها أو أنَّ هؤلاء هم الذين غلبت عليهم شهرة التصدي لقرائته وتعليمه أو أنَّ هؤلاء قد جمعوه حفظاً وكتابة دون غيرهم الذين جمعوه حفظاً(٣) .

وهكذا قيّد الله سبحانه وتعالى لكلامه من يرعى حرمته ويصون قداسته ويقف عند حدوده ويطبق أوامره ونواهيه ولهذا يسَّر الله لهم حفظه وسهل لهم فهمه ووعيه .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر) .

---

(١) السيوطي ـ الإتقان ١ / ١١٣ ، والصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ١٢ / ٣١١ .

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي ـ صحيح مسلم ٤ / ١٩٢٠ .

(٣) حسن عبد الحميد ـ هداية الرحمن في علوم القرآن ص٥٠ .

ثالثاً: أسباب ودواعي حفظ الصحابة للقرآن

توافرت عند الصحابة رضى الله عنهم عدّة أسباب جعلتهم يسارعون ويتسابقون إلى حفظ القرآن وفهمه فضلاً عن ترتيله ودرسه .

وقد أفاض العلماء في ذكر هذه الأسباب والدواعي(١) ، سنقتصر الحديث على أهمها خشية الإطالة .

من هذه الأسباب . .

أولاً : أنهم أمة صاروا يضرب بهم المثل في قوة الحافظة وقد كانت صدورهم دواوين شعرهم وأنسابهم ووقائعهم ، فلما جاء الإسلام نما فيهم هذه الموهبة بسماعهم كتاب الله تعالى الذي فاق كل ما كانوا يسمعوه .

ثانياً : حياتهم البسيطة واقتصارهم على الضروري منها أدّى إلى وفرة الوقت عندهم ومكنهم من استظهار ما يحبون ولاسيما القرآن الكريم .

ثالثاً : حبهم الصادق لله ورسوله ملك عليهم مشاعرهم وحملهم على حفظ كل ما يصدر عن النبى من قول أو فعل وتطبيق ذلك في حياتهم .

رابعاً : علم الصحابة بما في كتاب الله وسُنَّة رسوله من الترغيب في تلاوة القرآن وتدبره والاتعاظ به والعمل بما فيه وتعليمه والترهيب في الوقت نفسه من إهماله ونسيانه والآيات الدالة على ذلك والأحاديث الموضحة لذلك الجزاء كثيراً ، فكان حرصهم على الأجر والثواب أكثر من حرصهم على الدهم والدينار .

خامساً : أنَّ الصحابة رضى الله عنهم هم أعرف الناس بمنزلة القرآن ومكانته ، فهو منبع العقيدة وأصل التشريع المعجز في لفظه ونظمه ، مما جعلهم يحرصون على حفظه والعمل به ويرتلونه آناء الليل وأطراف النهار .

---

(١) انظر في هذا الموضوع ـ السيوطي ـ الاتقان في علوم القرآن ، والزرقاني ـ مناهل العرفان ومباحث في علوم القرآن ـ عبد الوهاب غزلان ـ وهداية الرحمن في علوم القرآن ـ حسن وتد .

سادساً : أنَّ القرآن الكريم حاول الكثير من الحلول لمشاكلهم والأجوبة عن تساؤلاتهم فضلاً عما حواه من وقائع وأحداث تحمل في طياتها العبر والعظات مما كان له أبلغ الأثر في نفوسهم فأقبلوا على حفظه ودرسه .

سابعاً : عناية الرسول ﷺ واهتمامه بتعليم القرآن للصحابة والعمل على إذاعته ونشره على أوسع نطاق ، هذا بالإضافة إلى حث الرسول ﷺ على حفظه وتعهده بالتلاوة ، ومن ذلك قوله ﷺ : « تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تقصياً(١) من الإبل في عقلها »(٢) .

وهناك أحاديث كثيرة تحث على حفظ القرآن والإقبال عليه منها قول الرسول ﷺ : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاَّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده »(٣) .

وقوله ﷺ : « خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه »(٤) .

وقوله ﷺ : « عُرضت عليَّ ذنوب أمَّتي فلم أرى ذنباً أعظم من سورة من الفرقان أو آية أويتها رجل ثمَّ نسيها »(٥) .

وقوله ﷺ : « لا حسد إلاَّ في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »(٦) .

---

(١) تقصياً : (تقصي الشيء) تخلص منه ، والمعنى أشد تفلتاً وهرباً من الإبل في عقلها .
(٢) البخاري ـ باب فضائل القرآن .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه الشيخان .
(٥) رواه أبو داود .
(٦) رواه الشيخان .

دواعي تثبت الصحابة رضي الله عنهم لحفظ القرآن

إنَّ الدواعي التي تحفز الصحابة إلى التثبيت في القرآن الكريم كثيرة سأقتصر منها على خمسة دواعٍ آخذاً من «المناهل» باختصار .

الداعي الأول

ما علموه من أنَّ الله تعالى أمر في محكم كتابه بالتثبيت والتحدي ، وحذَّر من الطيش والتسرع في الأنباء والأخبار .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم . إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ .

وقال جلَّ شأنه : ﴿ إن يتبعون إلاَّ الظن وإنَّ الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ .

الداعي الثاني

ما سمعوه من الترهيب الشديد ، ومن التهديد والوعيد ، لمن يكذب على الله ، أن يفتري على رسوله .

قال تعالى : ﴿ ومن أظلِم ممن افترى على الله كذباً . أو قال أوحى إليَّ ولم يوحى إليه شيءٌ . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ ومن أظلم ممَّن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « من كذب عليَّ متعمد فليتبوأ مقعده من النار » وهو حديث متواتر رواه اثنان وستون من الصحابة(١) .

الداعي الثالث

يسَّر وسائل التثبيت لديهم ، فقد كانوا في حياة رسول الله ﷺ يتصلون به فيشفي صدورهم من الريبة والشك ، وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى يتصل من لم يسمع منه ﷺ بمن سمع منه ، وهم كثيرون منتشرون في الأقطار ، مخالطون للناس في المساجد والبيوت والأسواق مفتورون على تبليغ العلم .

الداعي الرابع

شجاعة الأصحاب شجاعة فطرية ، وصراحتهم صراحة طبيعية نشئوا عليها منذ حداثتهم ، وطبعوا عليها بفطرتهم وبيئتهم ، كأمة مبتدية لاتعرف ختل الحضارة الملوثة ، ولا تألف نفاق المدينة المذبذبة . ثمَّ جاء الإسلام فعزز فيهم هذا الخلق الفاضل ، وبنى حضارته الصحيحة ومدنيته الطاهرة عليها ، وبثَّ فيهم من روح النقد ما لا يسمح لهم بقبول شيء مهما كان الآتي به عظيماً ـ ما لم يزنونه بقسطاط العقل ، ويمتحنوه بمحك الثقل حتى لقد كان الرجل منهم يقف في وسط الجمهور يرد على أمير المؤمنين وهو يلقي خطبته رداً قوياً صريحاً خشناً ، بل كانت المرأة تقف في بهرة المسجد الجامع فتقاطع خليفة المسلمين وهو يخطب ، وتقرع حجة بحجتها فيما تعتقد أنه أخطأ فيه شاكلة الصواب .

وهذا الخلق المشرق فيهم يحمل على كمال التثبيت في كتاب الله تعالى ودقة التحدي فيه .

---

(١) انظر الجامع الصغير للسيوطي وشروحه .

الداعي الخامس

تكافل الأصحاب تكافلاً اجتماعياً ، فرضه الإسلام عليهم ، فجعل عيونهم مفتحة لكل من يكذب على الله ، أو يفتري على رسول الله ، او يخوض في الشريعة بغير علم ، أو يفتي في الدين بغير حجة ، عملاً بقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولتكن منكم أمَّةً يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات . وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾.

إلى أن قال جلَّ شأنه : ﴿ كنتم خير أمَّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .

وتمسكاً بقوله ﷺ : « والذي نفسي بيده لتؤمرنَّ بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكنَّ أن يبعث الله عليكم عقاباً منه ثمَّ تدعون فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى بسند حسن عن حذيفة رضى الله عنه إلى غير ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية إلى التعاون على البر والتقوى ، والتواصي بالحق ، ورفض طاعة المخلوق في معصية الخالق ، وألاَّ يخاف في الله لومة لائم .. فلا يعقل بعد هذا أن يعبثوا أو يقروا من يعبث بكتاب الله تعالى .

الفصل الرابع

كتابة القرآن في عهد الرسول وأسباب ذلك

كانت الكتابة قديماً عزيزة عند العرب فكانوا لا يكتبون إلا الشيء النفيس الذي يعتزون به ويفخرون مثل الأشعار الفصيحة والخطب البليغة والوثائق النادرة التي تتخمت عهداً أو ميثاقاً بين القبائل العربية وكانت تعلَّق هذه النفيسة الغالية في جوف الكعبة حتى يراها القاصي والدَّاني ، فالقصائد الشعرية التي أجاد فيها الشاعر نظمها ونسجها وتفوق فيها عن غيره من الشعراء كانت تؤخذ وتعلق في جوف الكعبة وتسمى بالمعلقات(١) .

وذلك تكريماً له ودليلاً على تفوق ونبوغ قائلها ، ومن الأشياء النفيسة التي اهتم بها العرب تعليقها صحيفة المقاطعة التي كتبتها قريش لمقاطعة بني هاشم وكانت تقوم على الظلم والجور فأكلتها الأرضة إلاَّ باسمك اللَّهم .

فهذه الأشياء وغيرها لنفاستها عندهم اهتموا بكتابتها وتدوينها وإشهارها لضمان بقائها فكلما كان الشيء نفيس كلما زادت العناية به والحرص عليه ، لذا كان التعويل على الحفظ في الصدور يفوق التعويل على السطور كما رأيت ، فلما جاء الإسلام وانبثق النور من الظلام وبعث خير الأنام ونزل الوحي عليه بالقرآن خير الكلام ومنبع العلوم ومعدن المعارف والفهوم لم تقتصر عناية الرسول على حفظه ودرسه ولم يكتف بحفظ الصحابة له بالرغم من إتقانهم لحفظه بسبب طبيعتهم العربية التي وهبهم

---

(١) كالمعلقات السبع : هي القصائد الشعرية التي نسجها الشعراء العرب وأجادوا فيها فنالت أعجاب أهل الفصاحة والبلاغة من العرب فعلقوها في جوف الكعبة لإظهار الفخر والاعتزاز بقائليها .

صفاء الذهن وقوّة الذاكرة وسرعة الحفظ ، إلا أنه شرع في كتابة في السطور مبالغة في صيانته وحفظه عن طريق التسجيل والتدوين وزيادة في التوثيق والضبط خشية التغيير أو التحريف أو التبديل أو النسيان ، ولكي يعاضد المحفوظ المنقوش ويقوي المقروء المكتوب وبهذا توافر للقرآن ما لا يتوافر لغيره من الكتب السماوية من الحفظ والكتابة .

فاتخذ رسول الله ﷺ كتاباً ممَّن برعوا في الكتابة والقراءة يكتبون عنه القرآن الكريم ، فقد اختارهم رسول الله ﷺ لتوافر الذكاء وإرهاف الحث وقوّة السمع عندهم فضلاً عن إجادتهم للقراءة والكتابة .

فكان يملي عليهم ما ينزل عليه من القرآن في حضرته وبأمره وتحت رعايته وملاحظته كما تلقاه من جبريل عليه السلام كل كلمة في مكانها وكل سورة في موضعها بكل دقة وإتقان ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان الرسول ﷺ مما يأتي عليه الزمان ينزل عليهمن السور ذوات العدد وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كأن يكتب عنده يقول ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)(١) .

وعند البراء قال : لما نزلت ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ قال النبى ﷺ : « ادع لي زيداً وليجيء باللوح والدواة والكتف » ثمَّ قال : أكتب ـ لا يستوي القاعدون وخلف ظهر النبى عمرو بن أم مكتوم الأعمى فقال : يا رسول الله فما تأمرني ؟ فإنِّي رجل ضرير البصر فنزلت مكانها : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله غير أولي الضرر ﴾(٢) .

ويُقال أنَّ جبزيل هبط ورجع قبل أن يجف القلم .

فهذا يدل على أنَّ ترتيب الآيات بما اشتملت عليه من كلمات وحروف

---

(١) السيوطي ـ الإتقان ١ / ٩٧ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩ / ٢٧ .

كان بأمر من رسول الله ﷺ ولهذا أجمع العلماء على أنَّ ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك(١) .

وزيادة في الدقة فالتوثيق بكتاب الله كان الصحابة الذين يكتبون عند رسول الله الوحي يقومون بعرض المكتوب على رسول الله ﷺ بعد الكتابة المرة تلو المرة ، لأنه كتاب الله الخالد الذي ترجع إليه أجيال الناس في دينهم وأقضيتهم إلى يوم القيامة .

كما كان يحب أن يسمع القرآن من غيره كما دلَّت على ذلك أحاديث كثيرة ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، ولقد شهد الله سبحانه وتعالى لرسوله بالدقة والأمانة في التبليغ عند الله بقوله : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ (الحاقة) .

والحق أنَّ الكتاب من الصحابة الذين وقع اختيار الرسول عليهم وكانوا محل ثقته وموضع اختياره وأصبحوا على مستوى المسئولية التي أنيطت بهم وهى كتابة آيات التنزيل كما يمليها رسول الله ﷺ عليهم ووضع كل كلمة بل كل حرف في موضعه بتوقيف الرسول ﷺ .

وبهذه الطريقة كُتب القرآن كله في حياة الرسول ﷺ وحفظه أصحابه الأبرار رضى الله عنهم وكتبوه سوراً وآيات وكلمات وحروف مع الضبط والإتقان ولم ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلاَّ وهو محفوظ في الصدور ومدون في السطور ، وهذا تيسير من الله سبحانه أن هيّأ لكلامة من وسائل الحفظ والصيانة ما منع عنه الزيادة فيه أو النقص منه ، وصدق الله العظيم حين قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ .

(الحجر)

---

(١) السيوطي - الإتقان ١ / ٩٧ .

أسباب كتابة القرآن

وجدت أسباب كثيرة دعت إلى كتابة القرآن على عهد رسول الله ﷺ كان من أهمها :

١ ـ أخذ كل أسباب الحيطة والحذر في المحافظة على الذكر الحكيم وصيانته من التغيير أو التحريف والتبديل ، وهذا المحافظة لا تحقق إلاّ من طريقين الحفظ والكتابة ، الحفظ الباطن في الصدور والحفظ الظاهر في السطور .

٢ ـ تبليغ الوحي على الوجه الأكمل لأنَّ الاعتماد على حفظ الصحابة غير كاف فإنهم عرضة للنسيان أو الموت ، ولو اعتمد على حفظهم وحده لخشي ضياع شيء منه بالنسيان أو الموت ، أما الكتابة فباقية لا يتطرق إليها ذلك .

٣ ـ توكيد المحفوظ بالمنقوش والمقروء بالمكتوب بالكتابة والتدوين .

٤ ـ وجود وثائق وصحائف مادية يمكن الاعتماد عليها في التدوين أو التبليغ لمن يأتي من الأجيال بعد ذلك .

٥ ـ تنبيه المسلمين إلى المحافظة على القرآن بكل الوسائل الممكنة بالاقتداء برسول الله ﷺ حيث جمع بين الحفظ والتلقين والكتابة والتدوين .

ولذلك شرح الله صدر الأمة بعده لجمعه في الصحف ثمَّ في المصاحف ثم العناية بضبط المصاحف ونسخها وتحسين خطها وطبعها ونشرها ووضع الشكل والنقط وعلامات التجويد والوقف ، وتلقى القراءات واستمرار تواترها(١) .

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن الكريم ص٢٧ .

أماكن وجود هذه الصحف

أما عن مكان وجود هذه الصحف التي كتب فيها القرآن فأصح الأقوال أنها كانت متفرقة عند الكتاب حيث احتفظ كل كاتب بما معه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه شيء من القرآن دعا الكاتب ليكتبه ويأمر كتابه أن يضعوا الآية أو الآيات في موضع كذا من سورة كذا .

وظل الوضع على هذه الصورة حتى عهد أبي بكر رضي الله عنه الذي قام بجمع القرآن من الصحف وقلوب الرجال فجعله في مكان واحد بعد أن كان متفرقاً ولو كان القرآن مجموعاً في الصحف والأكتاف وموضوعاً في بيت النبى كما يظن البعض فما فائدة عمل أبي بكر في جمعه وما علّة فزع عمر رضى الله عنه من قتل القراء في ميادين الجهاد .

هذا ولم تشير المصادر المختلفة من قريب أو بعيد لا بالتصريح أو التلميح إلى وجود هذه الصحف في بيت النبى ﷺ وخلوّ المصادر من الإشارة إلى مكان وجودها في بيت النبى ﷺ فيه دلالة واضحة لا غموض فيها ولاإلتواء على عدم وجودها فإنها كانت مفرقة في بيوت الصحابة الذين قاموا بكتابة الوحى في حضرة رسول الله ﷺ .

كُتّاب الوحى

سبق أن ذكرنا أنَّ عناية الرسول ﷺ انصرفت نحو كتابة القرآن الكريم منذ أن نزل عليه أول مرّة وذلك خشية النسيان أو التبديل والتغيير ، ولهذا اتخذ النبى ﷺ كتاباً يكتبون عنه الوحى كلما نزل عليه ، وكانوا ممَّن يتقنون القراءة والكتابة اتقاناً يجعل المملى في ثقة كبيرة إلى ما يمليه عليهم .

وأمر النبى ﷺ كتابه ألاَّ يكتبوا عنه شيئاً غير القرآن حتى لا يلتبس القرآن بغيره من كلام الرسول ﷺ .

كان لهذه الكتابة عدَّة مهام عظيمة تتلخص فيما يلي :

١ ـ زيادة التوثيق والاحتياط لكلام الله عز وجل حتى تظاهر الكتابة الحفظ ويعاضد النقش اللفظ .

٢ ـ أنَّ الكتابة من أهم وسائل الحفظ من التغيير أو التبديل أو التقديم والتأخير أو النسيان ، فالمتغيرات التي تطرأ على الإنسان كثيرة .

وتسجيل القرآن وتقييده بالكتابة أوثق في الضبط وزيادة الاحتياط .

٣ ـ أنَّ الكتابة نموذج لنسق القرآن وترتيبه ومن ثمَّ لا يمكن مخالفته من حيث ترتيبه ولا مجالاً للرأى في تقديم بعض الآيات أو تأخيرها ، ومن هنا شرع الكتاب في كتابة الوحى بطريقة منظمة ودقة بالغة بحيث لا تسمح بتغيير حرف مكان حرف أو تقديم كلمة على أخرى .

كان رسول الله ﷺ يلقنهم بنفسه بطريقة المشافهة فيأمرهم بوضع الآيات في الأماكن التي يحددها وفي سورها على حسب ما أملاه عليه سيدنا جبريل عليه السلام ، إذ كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالآيات ويحدد له مكانها فيقول كذا في مكان كذا فيقوم رسول الله ﷺ بنفس التبليغ(١) .

لم يكن للكتاب من الصحابة رأى في ترتيب الآيات ووضعها في أماكنها من السور وإنما كان رائدهم الاتباع لا الابتداع لأن ترتيب الآيات أمر توقيف لا مجال فيه لرأى .

أمَّا عن كيفية الكتابة وطريقة صياغتها فيرى بعض الباحثين أنَّ الكتابة لم تكن كالقراءة على سبعة أحرف لسبب بدهي هو أنَّ الأحرف السبعة لايمكن ضمها في رمز خطي(٢) ، وقد تمت عملية الكتابة في مكة بيد كُتَّاب قرشيين .

---

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٢٤٧ .

(٢) عبد الصبور شاهين ـ تاريخ القرآن ص١١٥ .

وكان أوّل من كتب الوحي بمكة من قريش عبد الله بن سعد بن أبي السرح(١) ولكنه ارتدَّ بعد الهجرة وفرَّ من المدينة إلى مكة ثمَّ عاد إلى الإسلام يوم الفتح(٢) .

أمَّا في المدينة فقد تمت بيد جماعة من المهاجرين والأنصار ، وكان أوّل من كتبه بالمدينة أبيّ بن كعب ثمَّ كلان زيد بن ثابت أكثر الكتَّاب كتابة .

وقد أحصى المؤرخون عدَّة كُتَّاب الوحي فبلغت عدتهم في أتم إحصاء ثلاثة وأربعين ، وقيل أربعة وأربعون(٣) وهم :

١ ـ الخلفاء الراشدون الأربعة : أبو بكر رضى الله عنهم .

٢ ـ عمر رضى الله عنه .

٣ ـ عثمان رضى الله عنه .

٤ ـ عليّ رضى الله عنه .

٥ ـ أبي بن كعب .

٦ ـ أبو سلمة المخزومي .

٧ ـ الأرقم بن أبي الأرقم .

٨ ـ أبو أيوب الأنصاري .

٩ ـ شرحبيل بن حسنة .

١٠ ـ أبو رافع القبطي .

١١ ـ طلحة بن عبيد الله .

١٢ ـ بريدة بن الحصيب .

١٣ ـ ثابت بن قيس .

١٤ ـ جهيم بن الصلت .

١٥ ـ حنظلة بن الربيع .

١٦ ـ عبد الله بن رواحة .

١٧ ـ الحصين بن نمير النحيري .

---

(١) عبد الله بن مسعود بن أبي السرح بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسان بن عامر بن لؤى القرشي أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ، أسلم قبل الفتح وهاجر إلى رسول الله ﷺ ، كان يكتب الوحي ثمَّ ارتدَّ مشركاً وصار إلى قريش في مكة وقال لهم : إنِّي كنت أصرف محمداً حيث أريد وكان يملي عليَّ عزيز حكيم فأقول عليم حكيم فيقول نعم كل صواب ، وأهدر النبي دمه ، ثمَّ أسلم مرة وحسن إسلامه ، وتوفى عام ست وثلاثين بعسقلان .

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٥٩ .

(٣) الصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ١٢ / ٣٩٥ .

١٨ـ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول .

١٩ـ حذيفة بن اليجان . ٢٠ـ عبد الله بن سعد بن أبي الرح .

٢١ـ حويطب بن عبد العزّى . ٢٢ـ عبد الله بن زيد .

٢٣ـ حاطب بن عمرو . ٢٤ـ عبد الله بن عبد الأسد .

٢٥ـ خالد بن الوليد . ٢٦ـ عامر بن فهيرة .

٢٧ـ سعيد بن العاص وسعيد وأبناؤه خالد وابان وعمرو بن العاص .

٢٨ـ خالد بن زيد . ٢٩ـ العلاء بن الحضرمي .

٣٠ـ زيد بن ثابت . ٣١ـ العلاء بن عقبة .

٣٢ـ الزبير بن العوام . ٣٣ـ عبد الله بن الأرقم .

٣٤ـ سعيد بن العاص . ٣٥ـ سعد بن أبي وقاص .

٣٦ـ أبو سفيان بن حرب . ٣٧ـ معاوية بن أبي سفيان .

٣٨ـ معيقب بن أبي فاطمة . ٣٩ـ المغيرة بن شعبة .

٤٠ـ سعد بن أبي وقاص . ٤١ـ معاذ بن جبل .

٤٢ـ محمد بن مسلمة . ٤٣ـ يزيد بن أبي سفيان .

٤٤ـ السجل(١) .

وقد نظمهم البعض في صورة أبيات شعرية ليسهل حفظهم فقال :

كتابة اثنان وأربعونا ... زيد بن ثابت وكان حينا

كاتبه وبعده معاوية ... ابن أبي سفيان كان داعية

كذا أبو بكر كذا عليّ ... عمر عثمان كذا أبيّ

وابن سعيد خالد وحنظلة ... كذا شرحبيل حسنه

وعامر وثابت بن قيس ... كذا ابن أرقم بغير لبس

واقتصر المزى مع عبد الغني ... منهم عليّ ذا العدد المبين

---

(١) السجل هو كاتب النبي ﷺ ، وقيل اسمه هو الوارد في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ .

وزدت من مفترقات السيد ... جمعاً كثيراً فاضبطه واحصري
طلحة والزبير وابن الحضرمي ... وابن رواحة وجهما فاضمم
وابن الوليد خالداً وحاطباً ... هو ابن عمرو وكذا حويطبا
حذيفة بريدة ابان ... ابن سعيد وأبا سفيان
كذا ابنه يزيد بعض مسلمة ... الفتح مع محمد بن مسلمة
كذا أبو أيوب الأنصاري ... كذا معيف الدوسي
وابن أبي الأرقم فيهم أعدلا ... كذاك ابن سلوك المهتدى
كذا ابن زيد اسمه عبد الله ... والجد عبد ربه بلا اشتباه
واعدد جهيما والعلا ابن عتبة ... كذا حصين ابن نمير أثبت
وذكروا ثلاثة قد كتبوا ... وارتد كل منهم وانقلبوا
ولم يعد منهم إلى الدين سوى ... ابن أبي السرح وباقيهم غوى

اختصاصات الكتاب

وكان لكل مجموعة من الكتاب اختصاصها من حيث توزيع الأعمال عليهم ، فالجميع يسارع إلى كتابة الوحي عن رسول الله ﷺ حتى يحظى بالسبق وينال الأجر والمثوبة ، ومع أنَّ كثيراً من الصحابة كتبوا القرآن عن رسول الله ﷺ إلاَّ أنَّ زيد بن ثابت عُرِفَ بالكاتب لكثرة تعاطيه الكتابة وربما غاب زيد فكتب الوحي غيره .

ومنهم من كان يكتب المعاهدات والمصالحات على بن أبي طالب ، ومنهم من كان يكتب المعاملات والمداينات وسائر العقود كعبد الله بن الأرقم الزهري والعلاء بن عقبة ، ومنهم من كان يكتب المغانم ويسجلها : معيقب بن أبي فاطمة الدوسي وحنظلة بن الربيع ، ومنهم من كان يكتب خرص النخل(١) كحذيفة بن اليمان(٢) ، ومنهم من كان يكتب أموال

(١) خرص الشيء قدره بالظن والقرب . ويُقال خرص النخل والكرم قدر ما عليه من الرطب تمراً .
(٢) الصالحي ـ سبل الهدى والرشاد ١٢ / ٣٩١ .

الصدقات كالزبير بن العوام وجهيم بن الصلت ، ومنهم من كان يكتب الرسائل التي يبعث النبى ﷺ بها إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام أمثال عبد الله بن الأرقم الزهري وأبيّ بن كعب ، فإذا غاب أحد من هؤلاء قام حنظلة بن الربيع بن صفى الأسدى مقامه ، وكان زيد بن ثابت يقوم بقراءة الرسائل الوافدة إلى النبى موضحاً ما اشتملت عليه من أخبار .

وقد روى البخاري أنَّ رسول الله ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأه على النبى إذا كتبوا إليه فتعلمه في خمسة عشر يوماً ، وكان يكتب إلى الملوك والرؤساء الأجانب باللغات الأجنبية ويترجم رسائلهم للرسول ﷺ ، وروى الإمام أحمد وأبو داود نفس هذا المعنى الوارد .

وفي شأن معاوية بن أبي سفيان ، روى الطبراني برجال ثقات عن مسلمة بن مخلد رضى الله تعالى عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لمعاوية : « اللَّهمَّ علّمه الكتاب والحساب ومكّن له في البلاد »(١) .

وبهذا النظام الدقيق تنوعت الكتابة وتنوع معها الكتَّاب على حسب ماخصص له حيث أصبح لكل فريق بدلاء ينوبون عنه إذا غاب أحدهم أو منعه مانع ولا ريب أنَّ هؤلاء الكتبة كانوا أمناء جديرين بثقة النبى فيهم عندما اختارهم لكتابة الوحى .

ولكن ارتداد عبد الله بن سعد بن أبي سرح أحد كتّاب الوحى فتح الباب أمام المستشرقين والمغرضين وأعداء الإسلام للقيل والقال لإثارة الشبهات حول بعض الكتّاب وراحوا يبثون بذور الشك حول عملية تسجيل القرآن على عهد النبى ﷺ وبخاصة التي تمت على يد عبد الله بن سعد بن أبي السرح(٢) .

ويرد على بلاشير وأمثاله من المستشرقين المغرضين بل والمحاربين للإسلام

---

(١) المصدر السابق ١٢ / ٤٠٦ .

(٢) بلاشير ـ المدخل إلى القرآن ص٨ نقلاً عن تاريخ القرآن لعبد الصبور شاهين .

وأقلامهم المسمومة في استحالة أن يكون إرتداد عبد الله بن سعد قد أثَّر في كتابة النص القرآني لا من قريب أو من بعيد وفي قليل أو كثير وذلك لعدّة أسباب تضافرت لحفظ كتاب الله عزَّ وجل ، من أهمها ما يلي :

١ ـ المدارسة التي كانت تقرر كل عام مرة بين جبريل والرسول ﷺ وتشمل كل ما نزل من القرآن الكريم ، وفي العام الأخير حدثت المدارسة مرتين في العام كما في صحيح البخاري ، فلو كان هناك ثمة سقط أو تغيير أو تبديل حدث لوضع في مكانه .

٢ ـ أنَّ الذين تصدوا لكتابة الوحى كثيرون قد بلغ عددهم في أتم إحصاء ثلاثة وأربعين كاتباً كلهم كانوا يكتبون عن رسول الله ﷺ على حسب ما سمعوه منه فكانت الآية يكتبها أكثر من واحد ، ولزيادة التأكد من ناحية ولاحتياجهم لهذه الآيات في الحفظ والمدارسة ، ومن ثمَّ كان من الصعب العسير التبديل أو التغيير في صدر الآية أو ذيلها لأنَّ هذا سيظهر بالمقارنة وهذا ما حدث بالفعل أثناء الجمع الأول للقرآن الكريم .

٣ ـ أضاف إلى هذا كله أنَّ ابن أبي السرح الذي حاول المستشرقون من خلاله أن ينفثوا سمومهم إلى القرآن الكريم قد أسلم وحسُن إسلامه فلم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر أن يرد عليه وهو أحد العقلاء الكرماء من قريش ، وقد فتح الله على يديه أفريقية وعيّن والياً على مصر عام خمْسة وعشرين هجرية ، وفي عهد عثمان لما وقعت الفتنة اعتزلها ، فلو أنه أحدث في تسجيل القرآن شيئاً من التغيير أو التبديل كما زعم المستشرقون لسارع إلى إصلاحه وتصحيحه في أوقات جمعه في عهد عثمان(١) .

أمَّا الكاتب الآخر الذي ضلَّ عن سبيل الله بعد أن هداه الله وكان يكتب لرسول الله ﷺ كان من بني النجار(٢) ، وذات يوم انطلق هارباً حتى لحق

(١) انظر في ذلك ابن الأثير ـ الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٧٧ وابن سعد ـ الطبقات الكبرى ٧ / ٤٩٦ .

(٢) لم تصرح المصادر على اختلاف أنواعها باسم هذا الرجل .

بأهل الكتاب وأعجبوا به لأنه كان يكتب لمحمد ﷺ ، ولكن ما لبث أن قصم الله عنقه وهو بينهم ، أرادوا أن يدفنوه فحفروا له فواروه التراب فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ليكون عبرة للناظرين ثمَّ عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له في المرة الثالثة فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذاً(١) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ / ١٢٧ .

obeikan.com

الأدوات التي يكتب عليها

كانت الأمم في الزمن القديم متفاوتة في استعمال الأشياء التي تكتب عليها وتدون فيها أمجادها وسيرتها وذلك على حسب ما تيسّر لها من خلال ما هو موجود من البيئة المحيطة بهم ، ومن هنا خضعت هذه الأشياء التي يكتب عليها لمتغيرات كثيرة وتطورت عبر الزمان حتى استعمال الورق وانتشاره في سائر الأقطار .

ففي عصور البداوة قبل الإسلام كتب العرب أشعارهم وأدبهم وبطولتهم على أشياء مأخوذة من البيئة الصحراوية التي كانوا يعيشون فيها حيث ألجأتهم الحاجة إليها والحاجة كما يقولون أم الاختراع ، وكانت البيئة تمدهم بكل احتياجاتها الضرورية لهم حتى أصبحت مصدر إلهام لهم في الفصاحة والبلاغة والشعر ، ومن أهم هذه الأشياء التي كانوا يكتبون عليها ما يلي :

١ ـ **اللخاف** : وهى حجارة بيض رقاق لكى تظهر الكتابة عليها ويسهل حملها أو الإنتقال بها ، وقيل صفائح الحجارة .

٢ ـ **عُسُب النخل والكرانيف** : وهى مؤخرة الجديد الذي لا خوص فيه حيث يمتاز بالفرطحة مما يسهل الكتابة عليه ، والعُسُب جمع عُسيب وهى السعفة في النخل أو جريدة النخل إذا يبست وجفَّت ، والكرانيف جمع كرنافة السعفة الغليظ الملتصق بجذع النخلة(١) .

وهذه الأشياء كانت أكثر استعمالاً في الكتابة عليها وأوسع إنتشاراً من غيرها لتوافرها وسهولة الحصول عليها في تلك الفترة ، واستمر ذلك إلى أن بُعث النبى ﷺ ونزل القرآن والعرب على ذلك فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهم النبى ﷺ في اللخاف والعُسُب(٢) .

---

(١) .....

(٢) تلتشندي ـ صبح ٢ / ٤٨٦ .

٣ ـ **الأكتاف والأضلاع** : وهو عظم أكتاف الإبل والغنم حيث يمتاز هذا النوع من العظم بالفرطحة والاتساع أيضاً مما يساعد على الكتابة عليه من ناحية ولإحتوائه على قدر كبير من الكتابة من ناحية أخرى ، وقد وجد هذا النوع بكثرة نظراً لتوافر حرفة الرعى وانتشارها عند العرب ، وقد اشتهر العرب بالكرم وكثرة الذبائح ولهذا كان جلّ طعامهم القديد(١) أم الأضلاع فهو عظم الجنبين من البعير أو الشاة .

٤ ـ **الأقتاب** : جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على البعير للركوب عليه .

٥ ـ **الظُّرَر** : بضم الظاء وفتح الراء الحجر مطلقاً أو الحجر المدور وجمعه ظران بضم الظاء وكسرها مع تشديد الراء .

٦ ـ **الرقاع** : وهى جمع رقعة وهى ما يكتب عليه ، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد أو غير ذلك مما تجود به البيئة العربية .

٧ ـ **الأديم** : وهو نوع من الجلود وهو الجلد الأحمر المدبوغ ، أما القضيم فهو الجلد الأبيض الذي يكتب عليه ، أما الرّق فهو ما يرقق من الجلد ليكتب عليه(٢) .

٨ ـ **المهارق** : وهى الصحف البيضاء من القماش ويعرفه صاحب لسان العرب بأنه ثوب أبيض يسقى بالصمغ ويصقل ثمّ يكتب فيه(٣) .

هذه هى أهم الأدوات التي استعملها العرب في كتابتهم وتدوين أشعارهم والتي كانت في متناول اليد .

وقد استعمل العرب كل هذه الأدوات التي جاءت بها البيئة العربية في الكتابة عليها ، ولكثرة تداولها واستعمالها خلال تلك الفترة فقد

---

(١) القديد : هو نوع من الطعام عند العرب عبارة عن لحم جاف تحت حرارة الشمس .

(٢) ابن النديم ـ الفهرست ص٣٩ .

(٣) ابن منظور ـ جـ ٤ ص٨٥٣ .

جاء ذكرها في أشعار العرب ، فأمرئ القيس يقول :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عُسَيب يمانِ(١)

ويقول المرقش الأكبر :

الدار فقر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلم

ولما جاء الإسلام ونزل الوحي على رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم والذكر الحكيم ، انصرف النبي ﷺ بكل همته وعزمه إلى حفظه واستظهاره حيث بلغ من حرصه على حفظه إنه كان يحرك لسانه به عندما يهبط عليه سيّدنا جبريل بقوته ومهابته ثمَّ ينفصم عن رسول الله ﷺ وقد علمه ما نزل به من عند الله عزَّ وجلَّ ، عند ذلك يسرع الرسول ﷺ بتحريك لسانه وجنانه استعجالاً لحفظه وجمعه في صدره مخافة التبديل أو التغيير أو التقديم أو التأخير في كلمة أو حرف وما زال على هذه الحالة من الخوف على كلام ربّ العالمين حتَّى أثلج الله صدره وأراح قلبه بوعد الله له بأن يسهل له قراءته وفهمه وييسّر له جمعه في صدره ، قال تعالى : ﴿ لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنَّا علينا جمعهُ وقُرآنه فإذا قرأنه فاتّبع قرآنه ثمَّ إنَّا علينا بيانه ﴾ القيامة ١٩

ولما أمر رسول الله ﷺ الصحابة بكتابه القرآن لم يجدوا في بيئتهم ما يكتبون عليه إلاَّ هذه الأدوات السابق ذكرها نظراً لتوافرها بكثرة ، وقد جاء ذكر هذه الوسائل أو الأدوات في بعض الأحاديث ومنها ما رواه الزهري أنَّ رسول الله ﷺ قد قبض القرآن في العُسيب والقضيم والكرانيف ما رواه البخاري عن زيد بن ثابت أنَّه قال : « فتتبعت القرآن أجمعه بين اللخاف والعسب وصدور الرجال »(٢) .

أما لفظ الرّق فقد جاء في قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ① وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ② فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ ﴾ (الطور) .

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٨٥ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ /

كما استعمل العرب في كتابتهم لتقييد العلم مواد أخرى غير التي ذكرناها وذلك عندما تضيق بهم السبل أو لم تتوفر لديهم هذه المواد السالفة الذكر فيكتب مثلاً في واسطه رحله كما فعل سعيد بن جبير حيث يقول : كنت أسمع من ابن عمرو ابن عباس الحديث بالليل فأكتبه في واسطة رحله حتى أصبح فأنسخه .

فلما كان عهد عمر دخلت الدولة دور التطور حيث اتسعت الفتوحات وأبرمت العهود والمواثيق بين المسلمين وأهل الكتاب بالإضافة إلى المراسلات التي كانت تتم بين الخليفة والولاه ، كل هذه المستجدات تطلب من المسلمين البحث عن مواد أخرى تفي بحاجتهم حتى أتيح لهم أن يتعرفوا على مادتين صالحتين للكتابة عليهما هى القباطى والبردي المصري(١) .

ومن ثمَّ أصبح الاعتماد على البردي يتصدر مواد الكتابة العربية خلال عصر بني أميَّة وبداية العصر العباسي ولكنه كان من القلَّة بمكان .

ويذكر الإمام الشافعي في حديثه عن نفسه « أنه كان يتردد على المسجد في صباه ويجالس العلماء ، وكنت أسمع الحديث أو ، المسألة فأحفظها ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به القراطيس فكنت أكتب على ما يلوح لي من عظام فإذا امتلأ طرحته في حجرة قديمة كانت لنا »(٢) .

وفي العصر العباسي الأول في عهد هارون الروشيد ظهر الورق على الساحة الإسلامية ، وبظهوره خطت الكتابة خطوة واسعة نحو الذيوع والإنتشار حيث توافر الورق بصورة واضحة ولاسيما بعد انتصار الجيوش الإسلامية بقيادة زياد بن صالح الحارثي حاكم سمرقند على اخشيد فرغاته الذي كان يناصره ملك الصين سنة ١٢٣ هـ فقد ترتب على هذا الانتصار أن عاد المسلمون إلى سمرقند بعشرين ألف أسير من بينهم

---

(١) جورج زيدان ـ تاريخ التحدث الإسلامي جـ٣ / ١٤٧ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي ١٩

صينيون يعرفون صناعة الورق ، فكوّنوا النواة الأولى في صناعة الورق في سمرقند .

وعن إنتشار الورق يقول القلقشندي : (وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس وأمر الرشيد الناس ألاَّ يكتبوا إلاَّ في الكاغد لأنَّ الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنّه متى محى منه فسد وإن كشط ظهر كشطه ، وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار وتعاطاها من قرب ومن بعد واستمر الناس على ذلك إلى الآن(١) .

الأشياء التي كتب بها

أمَّا المواد التي كان يكتب بها فقد مرّت هى الأخرى بمرحلة التطور والتغير حتى وصلت إلى النضج والكمال ، حيث نشأت هذه المواد نشأة بدائية زهيدة إذ كانت وثيقة الصلة بالبيئة التي نشأت فيها ومن ثمَّ لجأ العرب إلى استعمال بعض الأدوات الحادة المصنوعة من الصوف وكتبوا بها على الصخور والرحال والاقتاب .

بيد أنَّ المصادر لم تصرح بالمادة التي كانوا يستعملونها العرب آنذاك في كتابتهم ، وأغلب الظّن أنَّها كانت مادة جبرية أو فحمية أو رصاصية بحيث إذا كتب بها تركت أثر لونها على اللوح والرقاع ، وهو ما يعرف بالمداد(٢) أى الشيء الذي يكتب به ، ويتكون المداد من مادة سوداء كالهباب أو مسحوق الفحم مذاباً في سائل لزج كالصمغ وغيره ويمزج مزجاً تاماً حتى يصبح كالسائل فيسهل الكتابة به .

وقد جاء ذكر المداد في الشعر الجاهلي في قول أحدهم :

---

(١) صبح الأعشا ٢ / ٣٧٥ .

(٢) المداد في الأصل كل شيء يمد به ثمَّ كثر استعماله لما تمد به الدواة فغلب كل شيء على غيره .

فلم يبق إلاَّ دمنة ومنازل كما رد في خط الدواة مدادها(١)

كما جاء في القرآن اسم المداد صريحاً في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴿١٠٩﴾ ﴾ (الكهف)

ولا يعقل أن يشير القرآن إلى شيء لا وجود له فلو لم يوجد المداد ما أشار إليه القرآن في آياته أو على أقل تقدير وجدت بعض المواد التي تقوم مقامه .

أمَّا أدوات الكتابة فقد وجد القلم المصنوع من المواد التي جاءت بها البيئة مثل الحطب والخشب أو غيره ، ومما يدل على وجودها عند العرب ما أشار إليه القرآن وصرح بذكر القلم في قوله : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ (القلم) ، وفي قوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق) .

وقد وردت آثار كثيرة قيلت في تهذيب الأقلام وشقها وقطعها وماينبغي أن تكون عليه قصبها من الصلابة والاعتدال وقلّة العقد ، وماقيل في حجمها وأطوالها وأعراضها وبريها وغير ذلك(٢) .

---

(١) الصولي ـ أدب الكتاب ص١٠٢ .

(٢) انظر في ذلك القلقشندي / صبح الأعشى ٢٥ / ٤٥٠ والصولي في أدب الكتاب ص٦٦ وابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٤ / ٤٣٥ .

الفصل الخامس

جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه

سبق أن ذكرنا أنَّ القرآن قد أُحيط بسياج منيع وحصن حصين ، بحيث لا يطرأ عليه أى تغيير أو تبديل ولا ينقص منه حرف أو يزاد عليه وقد هيئ الله له هذه العناية والحفظ بإرادته وقدرته ، وهذه العناية تستطيع أن تلحظها إذا أمعنت النظر وتدبرت مراحل نزول القرآن عندما فصل من اللوح المحفوظ ثمَّ في نقله بواسطة الروح الأمين إلى خاتم الأنبياء والمرسلين وتلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ عن طريق التلقين فحفظوه مع الشروع في كتابته وتدوينه في العُسُب واللخاف والأكتاف والأضلاع مرتب الآيات مضبوط الكلمات والحروف .

وكان الصحابة يتسابقون إلى الفوز بشرف كتابته عن رسول الله ﷺ مثل تسابقهم إلى حفظه ودرسه ، حتى كان القرآن ميداناً للتنافس فيما بينهم فنال من العناية والاهتمام ما لم ينله كتاب سماوي قبله .

وانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن أودعه قلوب الصحابة وسطور الصحف ولكنه كان مفرقاً في الرقاع وغيرها(١) .

ظلَّ القرآن على هذه الكيفية إلى أن تولى أبو بكر رضي الله عنه أمور الخلافة بعد اتفاق الجميع على فضله فهو أصوب الصحابة رأياً وأكملهم عقلاً وأحبهم إلى رسول الله ﷺ ، وثانى اثنين إذ هما في الغار ورفيق النبى في الهجرة وأول من جمع القرآن في مصحف واحد(٢) .

---

(١) انظر في ذلك أبو داود ـ المصاحف ص٥ وابن الجزري ـ النشر في القراءات العشر ١ / ٦ .

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٦٠ وأبو داود السجستاني ـ المصاحف جـ ٥ .

غـزوة اليمـامة

ما إن آلت مقاليد الخلافة إلى الصديق حتى كانت تنتظره صعاب لا يقدر على مواجهتها إلاَّ من أوتي الإيمان الصادق والعزيمة القوية الصلبة والصبر على الشدائد لكي يتمكن من تذليلها وإخضاعها والتغلب عليها ، وكانت أوّل هذه الاضطرابات التي أثارها المرتدون بعد وفاة النبي ﷺ في أنحاء شبه الجزيرة العربية وعرضوا الدين الإسلامي والوحدة العربية التي سعى النبي ﷺ إلى قيامها للضعف وربما للإنهيار ، وقد استطارت هذه الحركة المعادية للإسلام كما تستطير النار في الهشيم وسرت في روح الأشخاص في أكثر الأنحاء وبين القبائل وهموا بالرجوع عن الإسلام والخروج عليه وعلى طاعة الخليفة وتجاوزت بعض القبائل العربية مرحلة الهم إلى مرحلة التنفيذ فأعلنوا الردة في صراحة ووضوح ولولا عناية الله وحفظه لدينه لتعرض الإسلام لما ينبغي أن يتعرض له من المحن والأهوال والخطوب ، ولكن الله سلم إنَّه عليم بذات الصدور(١) .

وقد شاءت إرادة الله عزَّ وجلَّ أن يهيئ لهذا الدين رجالاً صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، يتحملون مسئولية تبليغه إلى الناس ويردون عنه كيد الكائدين ومكر الماكرين وتحريف المبطلين .

واختار الله أبا بكر لهذه الصعاب فجمع ار عليه المسلمين ونهض يواجه هذه المحنة القاسية والشدة العاتية بكل قوّة واقتدار بعد أن أثار غضبه جرأة المرتدين على الدين واستهانتهم به وعقد العزم على قتالهم وأقسم بقوله : (والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه)(٢) .

---

(١) انظر في ذلك حركة الرواة في عهد أبي بكر ، د/ حسن شاهين .

(٢) انظر الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٣ / ٢٢٣ ، وابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ٢ / ٣٠٠ ، وابن خلدون ـ ديوان المبتدأ والخبر ٢ / ٧٢ ، وابن كثير ـ البداية والنهاية ٦ / ٣٠٨ .

وقد تنوعت أشكال الردّة وتباينت صورها ما بين مانعي الزكاة ومتمردين على الإسلام ومتنبئين يدّعون النبوة لأنفسهم كذباً وزوراً(١) .

وبالرغم من كثرة المتنبئين كثرة تدعو إلى الدهشة والعجب أمثال الأسود العنسي باليمن وسجاح بنت الحارث في بني تغلب بالعراق عند إقليم الجزيرة ، ولقيط بن مالك الملقّب بذي التاج في عمان ، إلاّ أنّ حركة مُسَيلمة بن حبيب في بني حنيفة باليمامة وادّعائه للنبوّة كانت أجلها خطراً وأبعدها أثراً على الإسلام ومستقبله من الأدعياء الآخرين .

لقد استفحل أمر مسيلمة حتى بلغ مبلغاً أثار مخاوف المسلمين على الإسلام وجعل خليفة المسلمين يستعد لهذه المعركة الفاصلة التي اعتبرها الصديق من أشد العقبات التي تقف في طريق الإسلام ، فجمع لهذه المعركة من القوة والعتاد ما يمكنه من القضاء على مسيلمة وأتباعه ، فتوجه إلى بني حنيفة .

بدأ الصديق في توجيه القوّاد على رأس جيوش المسلمين إلى بني حنيفة باليمامة حيث يقيم مسيلمة الكذاب ومن شايعه فأرسل إليهم عكرمة ابن أبي جهل ثم وجه في أثره شرحبيل بن حسنة يعاونه ، ثمّ أرسل خالد ابن الوليد على أثرهما ، وأراد الصديق أن يضاعف القوات المبعوثة إلى اليمامة لكي يتثنى لها القضاء على هذا الكذاب ، فقد كانت تطير إليه الأنباء تخبره بقوّة مسيلمة مما جعله يسعى إلى تقوية غزاة اليمامة بما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

كانت جيوش المسلمين في معركة اليمامة تضم جمعاً غفيراً من حفاظ القرآن الذين اندفعوا إلى المعركة يقاتلون مسيلمة وأصحابه حتى استشهد

---

(١) انظر في ذلك د/ حسن شاهين ـ حركة الردّة في عهد أبي بكر] ص٦٠ .

من كبار الصابة الحافظين لكتاب الله سبعون شهيداً ، وقيل سبعمائة من الصحابة ، وقيل أكثر(١) .

وصرّح ابن كثير بأنَّ مَن قُتل من القراء يومئذٍ قريب من خمسمائة(٢) .

وكان قتلهم فاجعة للمسلمين ، واشتدَّ حزن الخليفة وأهل المدينة على من استشهد من المسلمين في غزوة اليمامة ولاسيما الحافظين لكتاب الله منهم ، لقد كان قضاء الله ولا تنفع الحيلة في رد القضاء .

الشورى في جمع القرآن

اشتدَّ جزع المسلمين على من استشهد من الصحابة الكرام في غزوة اليمامة وحزنوا عليهم حزناً شديداً نظراً لمكانتهم ومنزلتهم الرفيعة التي نالوها بحفظهم للقرآن الكريم وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته ، ولكن ما عسى أن يكون لو استشهد حفاظ القرآن في المعارك الأخرى أثناء القيام بنشر الإسلام ، فما غزوة اليمامة إلاَّ حلقة من حلقات الجهاد التي يخوضها المسلمون لنشر الإسلام وسوف يتبعها معارك عديدة .

لقد عزَّ هذا الأمر على المسلمين وآثار مخاوفهم على القرآن وحفاظه من أن يتعرض للفقد أو الضياع بسبب فقد حفّاظه ومرتليه ، وانتبه عمر إلى خطورة الموقف وهو ناصح أمين فراح يفكر في الآثار التي يمكن أن تترتب على فقدان الحفاظ واحداً تلو الآخر والقرآن أغلى ما يعتز به المسلم لدينه ودنياه .

ولقد هداه الله إلى فكرة جمع القرآن في موضع واحد وأسرع إلى خليفة المسلمين ليشير عليه بجمعه .

---

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٦ / ١٢ .

(٢) فضائل القرآن ص٥٨ .

رأي الخليفة في جمع القرآن

لم يكن الصديق رضي الله عنه عندما حضر إليه عمر لم يكن قد فكر في هذا الأمر ولم يرد بباله ، فمسئولية الخلافة وما يتبعها من مهام وواجبة في القيام بهذه المسئولية على أكمل وجه والقضاء على الفتن الثائرة هنا وهناك بسبب المتمردين والمرتدين ، كل هذا ملك عليه نفسه وأخذ كل وقته ولذلك من أن جاء إليه عمر رضي الله عنه وطرح عليه الأمر واقترح عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء ، حتى ردَّ عليه بقوله : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ .

وفي هذ الردَّ دلالة على تأسِّي سيّدنا أبي بكر برسول الله ﷺ وشدَّة اقتدائه به في كل ما دق وجل ، وهذا التأسي جعله يهاب الإقدام على عمل لم يعمله رسول الله ﷺ ولم يرد فيه أمر من الله ورسوله وأصبح شدّة التأسي برسول الله عند أبي بكر تمثل سر قوته وصموده وسر إقدامه على قتال المرتدين حتى وإن خرج إليهم وحده .

أضف إلى هذا شدَّة خوف الصديق من الإقدام على هذا العمل من أن يجره التجديد إلى التبديل أو يسوقه الإنشاء والاختراع إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع(١) .

وعلى الجملة فهو دائماً يؤثر الاتباع وينفر من الابتداع ، ثمَّ إنَّ هذا الجمع قد يؤدي إلى الاتكال على المكتوب فيتوانى الناس عن الحفظ والتكرار وهذا ضرر لا يقع فيه وفساد لا صلاح فيه ، وهذا ما يحتمل أن يكون قد دار في نفس الصديق ولهذا حجم عند الجمع أوّل الأمر .

ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الناصح الأمين لخليفة المسلمين راح يحسن له هذا العمل ويحمله إياه وأقسم أنه خير ، فجمع القرآن في

---

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ٢١ / ٢٤٩ .

موضع واحد وإن لم يحصل في زمن الرسول ﷺ لعدم الحاجة إليه ولعدم إمكان انتظامه فقد نبّه عليه أمته من خلال أمره بكتابة كل من نزل من القرآن واتخذ لتدوينه كتاباً يكتبون عنه ، وكان ينهي عن كتابة غير القرآن وينهي عن السفر بالقرآن إلى أرض الغدو ، وكل هذا يعتبر إيماء إلى أن تحافظ الأمة على القرآن بما تستطيع المحافظة عليه .

ومما يشير أيضاً إلى ذلك تسمية الله عزّ وجلّ إيّاه كتاباً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) ﴾ (البقرة) . وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النساء) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ (الطور) ، والكتاب ما كتب منسقاً في موضع واحد(١) .

ثمَّ إنَّ جمع القرآن في مصحف واحد ليس محدثة ولا من المبتدعات كما صرّح بذلك الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتابه فهم السُّنن : (كتابة القرآن ليست محدثة فإنَّه ﷺ كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعُسُب وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشراً فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضع منها شيء) .

لقد ظلَّ عمر يراجع الصديق في صدق وإخلاص حتى شرح الله صدره له ، فعمر رضي الله عنه مع علمه بأنَّ هذا الأمر لم يفعله رسول الله ولم يأمر به صريحاً يرى أنه نبَّه عليه أمته بالقيام بكل ما تيسَّر من وسائل حفظه من اقراء وعرض وكتابة ، ولم تكن في هذا الوقت حاجة إلى هذا الجمع وقد ظهرت الحاجة إليه بعد وفاته بسبب قتل القراء وهي خشية الضياع فلا

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن الكريم .

(٢) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٣٨ ، والسيوطي ـ الإتقان ١ / ٩٣ .

مانع إذن من جمعه ، كما أنَّ جمعه في مصحف واحد لا ينافي وعد الله بالحفظ في الآية الكريمة لأنه قد يضيع بقتل بعض القراء بعض ما هو مكتوب فلا يدري كيف كان وضع كتابته مع بقائه محفوظاً في الصدور ، وقد يضيع بعض الأحرف السبعة مع بقائه محفوظاً بالأحرف الباقية ، فخشية الضياع في كلامه مراد بها خشية ضياع المكتوب أو خشية ضياع بعض الأحرف السبعة ، هذا إذا كان المراد بالحفظ في الآية الحفظ بلا قيد ، ويحتمل أن يكون المقصود به الحفظ مابقي الناس قائمين بوسائله من دوام القراءة وجمع الكتابة .

على أنَّ الوعد بالحفظ وإن أريد به الدوام والإطلاق فلا يمنع من وجوب الأخذ بأسبابه كما لا يمنع الوعد بالرزق وجوب السعي في أسبابه ، ولهذا لم يستغني النبي ﷺ بهذا الوعد عن إدامة قراءة القرآن ومدارسته والحث على حفظه وتبليغه واستدعاء الكتبة لكتابته(١) .

فعمر قد فهم أنَّ ترك النبي ﷺ جمعه لا دلالة منه على المنع ..

هذا ما يحتمل أن يكون قد دار في فكر عمر عندما عرضت له هذه الفكرة وأحبَّ أن يقرّه عليها الخليفة .

وذكر القاضي أبو بكر الباقلاني وجوهاً يحتمل أنَّ عمر احتجَّ بها أو ببعضها :

الأول : أنَّ رسول الله ﷺ ترك ذلك مصلحة وفعله أبو بكر للحاجة والضرورة .

الثاني : أنَّ الله أخبر أنَّه في الصحف الأولى وأنه عند محمد في مثلها بقوله تعالى : ﴿ يتلو صحفاً مطهّرة فيها كتبٌ قيِّمة ﴾ فهذا اقتداء بالله ورسوله .

الثالث : أنهم قصدوا بذلك تحقيق قوله تعالى : ﴿ إنَّا نحن نزَّلنا الذكر

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن ص٤١ .

وإنَّا له لحافظون ﴾ فأخبر أنه يحفظه بعد نزوله ومن حفظه تيسير الصحابة بجمعه واتفاقهم على تقييده وضبطه .

الرابع : أنَّ النبي ﷺ كان يكتبه كتبته بإملائه إيَّاه عليهم وهل يخفى على متصور معنى صحيحاً في قلبه أنَّ ذلك كان تنبيهاً على كتابته وضبطه في الصحف فقد تولَّى الله حفظه ولم يمنع ذلك النبي من كتابته .

الخامس : أنَّه ثبت عن النبي ﷺ نهى عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو مما يدل على أنَّ القرآن بين الأمة مكتوب ومستصحف في الأسفار .

كل ذلك يوضع بما لا يدع مجالاً للحوار على مشروعية الجمع وفضله وقد قدم إليه الصديق بعد اقناع مع شدَّة تأسيه برسول الله ﷺ في كل أفعاله ، لقد اطمأنَّ قلبه إلى جمع القرآن ورأى فيه النفع والفائدة ، وفي هذا يقول ابن حجر : « أنه لم يفعل ذلك إلاَّ بطريق الاجتهاد السائغ الناشيء عن النصح منه لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم وقد كان النبي ﷺ أذن في كتابة القرآن ونهى أن يكتب معه غيره فلم يأمر أبو بكر إلاَّ بكتابة ما كان مكتوبة ، ولذلك توقف عن كتابة الآية من آخر سورة براءة حتى وجدها مكتوبة مع أنه كان يستحضرها هو ومن ذكر معه ، وإذا تأمَّل المصنف ما فعله أبو بكر من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله وينوه بعظيم منقبته لثبوت قوله ﷺ : « مَن سنى سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » فما جمع القرآن أحد بعده إلاَّ وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة(١) .

وقد علَّل ابن بطال تعليلاً مفيداً يوضح سبب اعتراض أبي بكر رضي الله عنه على رأى عمر رضي الله عنه ثمَّ اعتراض زيد بن ثابت من بعده في أوّل الأمر فقال : (إنَّما نقر أبو بكر أولاً ثمَّ زيد بن ثابت ثانياً لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياط الرسول ﷺ فلمَّا

(١) فتح الباري ١٩ / ١٤ .

نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشي أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة رجعاً إليه . قال : ودلَّ ذلك على أنَّ فعل الرسول ﷺ إذا تجرَّد عن القرائن وكذا تركه لا يدل على وجوب ولا تحريم ، وليس ذلك من الزيادة على احتياط الرسول بل هو مستمد من القواعد التي مهدها الرسول ﷺ(١) .

أسباب جمع القرآن الكريم

بعد أن تشاور الخليفة وعمر رضى الله عنهما بشأن جمع القرآن الكريم واستقر رأيهما عليه عزماً على جمعه من أماكنه المتفرقة وضمه في مصحف واحد ، كان لهذا الجمع عدَّة أسباب دعت إليه وشجعت عليه من أهمها :

١ ـ الأعداد الوفيرة الذين استشهدوا في غزوة اليمامة وكانوا من حفاظ القرآن ، فقد أثار استشهادهم مخاوف المسلمين على القرآن وأهله وخشوا أن يستحر القتل في سائرهم كما استحرَّ فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

٢ ـ الاستوثق لكتاب الله والاحتياط له لحفظه وصياغته بكل ما تيسَّر وسائل حفظه من المصالح الواجبة على الأمة الإسلامية وذلك لأنَّ القرآن أساس الدين ومنبع الشريعة ومصدر الأحكام وحرص الأمة على بقائه عن طريق جمعه لا يقل عن حرصهم على حفظه ودرسه وبخاصة أنه لا يوجد مايعارض هذا الجمع أو ينافيه لا في المنقول ولا في المعقول .

٣ ـ هناك إشارات واردة في كتاب الله سبحانه تومىء وتشير إلى احصائه وحفظه وكل أمر يرجع لإحصائه وحفظه فهو واجب على الكفاية ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ إنَّ علينا جمعه وقرآنه ﴾ ، وقوله : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى ﴾ ، وقوله : ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ ،

(١) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري بشرح البخاري ١٩ / ١٥ .

ومن الأحاديث قول الرسول ﷺ : « لا تكتبوا عنّي شيئاً غير القرآن ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه »(١) .

٤ ـ ثمة سبب رابع كان من دواعي جمع القرآن وهو أنَّ عمر سأل عن آية من كتاب الله فقيل مع فلان قُتل يوم اليمامة فقال إنَّا لله وإنا إليه راجعون وأمر بجمع القرآن فكان أوّل مَن جمعه(٢) في المصحف(٣) .

بيد أنَّ السبب الذي أجمع عليه العلماء والمحققون في جمع القرآن هو كثرة استشهاد القراء يوم اليمامة .

يقول ابن كثير : (ولكن قُتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة) رضى الله عنهم ، فلهذا أشار عمر على الصديق بأن يجمع القرآن لئلاَّ يذهب منه شيء بسبب موت من يقوم يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال فإذا كتب وحفظ وصار ذلك محفوظاً فلا فرق بين حياة من بلغه أو موته ، فراجعه الصديق قليلاً ليتثبت الأمر ثمَّ وافقه وكذلك راجعهما زيد بن ثابت في ذلك ثمَّ صار إلى ما رأياه رضى الله عنهم أجمعين وهذا المقام من أعظم فضائل زيد بن ثابت الأنصاري(٤) .

تكليف زيد بالجمع وأسباب ذلك

جمع زيد بن ثابت من جليل الصفات وعظيم المواهب ما ميّزه عن غيره من الرجال فهو من أوائل من تعلموا القراءة في مكة في وقت ندر فيه من يتعلمها إن لم يكن في قريش كلّها حينما بعث رسول الله ﷺ غير سبعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون ، وقد ظهرت عنده علامات النبوغ مبكراً تنبىء بمن شاهده بأنه سيكون له قدر ومنزلة .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) ومعنى أوّل من جمعه أى أشار بجمعه .

(٣) السيوطي ـ الاتقان ١ / ٩٣ .

(٤) فضائل القرآن ص٥٨ .

كان زيد يتمتع بحدّة الذكاء وقوّة الحفظ وعلوّ الهمة ، بلغ من اهتمامه بالقرآن أنه حفظ بضع عشرة سورة من القرآن قبل قدوم النبى ﷺ إلى المدينة ، ولما علم الرسول ﷺ بذلك أعجب به واختاره ليكون من كُتّاب الوحى وكان ألزمهم بذلك .

تفرس النبى ﷺ في زيد علامات النبوغ فأمره أن يتعلم كتاب اليهود فإنّي ما أمنهم على كتابي فتعلم لغتهم في خمسة عشر يوماً .

روى الإمام أحمد وأبو داود عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ذهب بي إليه فأعجب بي فقيل يا رسول الله هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة فأعجب ذلك رسول الله ﷺ فقال : يا زيد تعلَّم كتاب اليهود فإنّي والله ما أمن يهود على كتابي فما مرَّ بي من نصف شهر حتى تعلمته وحذقته فكنت أكتب له إليهم وأقرأ كتبهم وكان يكتب للنبى ﷺ الوحى ويكتب له أيضاً المراسلات وكان يكتب لأبي بكر وعمر رضى الله عنهما في خلافتهما ، وقد قال فيه الرسول ﷺ أفرضكم زيد وكان عمر يستخلفه إذا حجَّ وكذلك عثمان وهو الذي تولى قسم الغنائم في اليرموك(١) .

كان زيد يلازم النبى ﷺ أكثر أوقاته حتى حفظ القرآن كله في عهده وشهد أُحُد وما بعدها ، وقيل أوّل مشاهده الخندق وكان أحد فقهاء الصحابة وأحد الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وأعلم الصحابة بالفرائض ، قال فيه رسول الله ﷺ : « أفرضكم زيد » وكان من أفكه الناس إذا خلا في منزله وأزمتهم(٢) إذا جلس مع القوم(٣) .

وقد رفع القرآن من قدره وشأنه وقدمه على غيره حتى أنَّ النبى ﷺ

---

(١) الصالحي - سبل الهدى والرشاد في سيره خير العباد ١٢ / ٣٩٦ .

(٢) أزمتهم - أى أوزنهم وأوقرهم .

(٣) الصالحي - سبل الهدى والرشاد ١٢ / ٣٩٥ .

أعطاه راية بني النجار يوم تبوك وكانت مع عمارة بن حزم فأخذها النبى منه ورفعها إلى زيد فقال عمارة يا رسول الله هل بلغك عنّي شيء ؟ قال لا ولكن القرآن مقدم .

كما احتلَّ زيد مكان الصدارة في القضاء والفتوى والفرائض وقراءة القرآن ، لذا كان يرجع إليه عمر في بعض مسائل الدين ، وكان ابن عباس على جلالة قدره وسعة علمه يأتيه إلى بيته ليأخذ عنه ويقول : العلم يؤتَى ولا يأتي ، وأخذ ابن عباس بركاب زيد فنهاه وقال : تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ . فقال زيد أرني يدك فأخرج يده فقبّلها وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا(١) .

فلمَّا كان عهد الصديق وعزم على جمع القرآن الكريم وضمه في مصحف واحد قام باستدعاء زيد وأوكل إليه مهمة هذا الجمع .

حضر زيد إلى مقر الصديق ليقف على جليّة الأمر فقال له أبو بكر : إنَّك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فأجمعه .

هذه هى الصفات التي رشحت زيد لهذه المهمة .. **أولها** : القوة .

حقاً لقد كان زيد خلال هذه الفترة في فتوة شبابه وبالغ قوته ومضاء بأسه إذ كان في الثالثة والعشرين من عمره وهذه القوّة تعينه على تحمل التعب والمشاق أثناء الجمع .

الثانية : صفة العقل ليعينه على التحقيق والتدقيق ، ويجعله في يقظة وانتباه .

الثالثة : الثقة في أمانته أو عدالته وهى تمثل في هذا العمل حجر الزاوية ومحور الارتكاز .

الرابعة : أنه من كُتَّاب الوحي وأكثرهم ملازمة للنبى ﷺ ، ويقول ابن

(١) خير الدين زركلي ـ الاعلام ٣ / ٥٧ .

حجر إنَّ أبا بكر ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك كونه شاباً فيكون أنشط لما يطلب منه وكونه عاقلاً فيكون أوعى له وكونه لايتهم فتركن النفس إليه وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة له ، وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة .

وقال ابن بطال عن المهلب : هذا يدل على أنَّ العقل أصل الخصال المحمودة لأنه لم يصف زيداً بأكثر من العقل وجعله سبباً لائتمانه ورفع التهمة عنه(١) .

الخامسة : أضف إلى هذا صفة أخرى تميز بها زيد عن غيره وهي أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن مع رسول الله ﷺ وهي العرضة التي كان يصلي بها وختم بها رسالته(٢) .

ويروي الإمام القرطبي عن أبي بكر الانباري الدواعي التي جعلت الصديق يختاره زيد على غيره فيقول : (إنَّ زيداً كان أحفظ القرآن من عبد الله إذ وعاه كلّه ورسول الله حي والذي حفظ منه عبد الله في حياة رسول الله ﷺ نيف وسبعون سورة ثمَّ تعلم الباقي بعد وفاة الرسول لله فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حي أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار(٣) .

فقد اختاره أبو بكر وآثره على غيره لأنه شاب أقدر على العمل منهم وهو لشبابه أقل تعصباً لرأيه ولا اعتزازاً بعلمه وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة من القراء والحفاظ والتدقيق في الجمع دون إيثار لما حفظه هو وإن كان المتواتر أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن حين عرضه رسول الله ﷺ على جبريل للمرة الثانية التي كانت فيه وفاته .

---

(١) فتح الباري ١٩ / ١٤ .

(٢) الرافعي ـ الإعجاز في القرآن والسُنَّة ص٢٢ .

(٣) تفسير أحكام القرآن ١ / ٣٤ .

بيد أنَّ زيداً كان دائم الشعور بعظم المسئولية وأهمية العمل الموكول إليه وهذا الشعور منبعة إحساسه المرهف برقابة الله عليه ثمَّ رقابة الصحابة من حوله ، فالحفَّاظ من الصحابة كثيرون وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة ، أضف إلى هذا تقديس زيد للقرآن وإجلاله له جعله يستعظم أمر جمعه ويحس بضخامة المسئولية وصعوبتها ، وقد عبَّر عن ذلك بقوله : فوالله لو كلَّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على ممَّا أمرني به من جمع القرآن(١) .

وما إن استقر الرأى على جمع القرآن واختيار زيد لهذه المهمة حتى شرع بجمع القرآن من كل ما كتب فيه مما عنده وعند غيره من الرقاع وقطع الأديم والعُسُب والأكتاف وغيرها يعاونه في ذلك أبو بكر وعمر وكبار الصحابة حتى وصل إلى الغاية التي ابتغاها منه أبو بكر وترضي الله ورسوله فكتب القرآن المتواتر المتلو كله بأحرفه السبعة في صحف من الورق مرتب الآيات في سورها على ما وقف عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام(٢) .

وهكذا أراد الله سبحانه وتعالى لكلامه أن يحفظ تحقيقاً لوعده في كتابه : (إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون) فكان زيد ومن يعاونه من كبار الصحابة يد القدر التي تجمع الذكر الحكيم وتثبته في سجلاته ليظل القرآن معجزة النبى الكبرى الشاهدة على صدقه الدالة على نبوته المعجز للعقول والأذهان عن الاتيان بمثله .

* * *

(١) البخاري ـ فتح الباري ١٩ / ١٤ ، أبو داود السجستاني ـ المصاحف ، والزركش ـ البرهان في علوم القرآن ص ٢٣٠ .

(٢) العبادي ـ جمع القرآن ص٤٦ .

طريقة الجمع

اتبع زيد رضي الله عنه في جمعه للقرآن الكريم طريقة منظمة تضمن له التأكيد من صحة ما يكتب من الآيات بأنها صحيحة كما أملاها رسول الله ﷺ على كُتَّابه الأمناء وكانت غايته في ذلك طلب الرضا من الله سبحانه فكان لا يقبل من القرآن إلاَّ المتواتر لأنَّ القرآن لا يثبت إلاَّ بالتواتر .

وقد أشار الآسدى في كتابه إلى ذلك فقال : كما كان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان بذلك مبالغة في الاحتياط .

فكان لا يكتفي بمجرد وجوده مكتوباً حتى يشهد من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظه ، فالتثبيت البالغ والحذر الدقيق والتحري الشامل والاستقصاء الكامل لكتاب الله عزَّ وجلَّ لا يتم إلاَّ بالاعتماد في هذا الجمع على مصدرين هما :

الأول : ما سجل وكتب وكتب بين يدى رسول الله ﷺ باملائه وتحت سمعه وبصره .

الثاني : ما كان محفوظاً في صدور الرجال ، وقد صرّح زيد بأنه اعتمد على هذين المصدرين بقوله : « فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال » أما الشهود الشهود العدول الذين يؤيدون النص القرآني تأكيداً وتوثيقاً ، فقد روى أبو داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال : لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرّق أبو بكر على القرآن أن يضيع فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت رضى الله عنهما اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه(١) .

وقال ابن حجر : والمراد بالشاهدين الحفظ والكتابة أو المراد أنهما

---

(١) المصاحف ص٦ .

يشهدان على أنَّ ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ أو أنَّ المراد أنهما يشهدان على ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن وكأنَّ غرضهم أن لايكتب إلاَّ من عين ما كتب بين يدى النبى ﷺ لا مجرد الحفظ(١) .

وقال السخاوي في جمال القراء المراد أنهما يشهدان على أنَّ ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن(٢) .

وأخرج ابن اشته عن الليث بن سعد قال : (أوّل من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلاَّ بشاهدى عدل وأنَّ آخر سورة براءة لم توجد إلاَّ مع أبي خزيمة بن ثابت فقال : أكتبوها فإنَّ رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب وأنَّ عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها لأنه كان وحده(٣) .

وسار زيد ومن معه على هذا النهج القديم لم يكتب في الصحف إلاَّ ماثبت يقيناً تواتره عن النبى ﷺ ولا يثبت آية إلاَّ إذا اطمأنَّ إلى إثباتها كما أوحيت إلى رسول الله ﷺ ، فقد روى أنَّ عمر بن الخطاب قرأ : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان)(٤) برفع كلمة الأنصار ومن غير واو العطف بينها وبين الذين فقال له زيد والذين اتبعوهم بإحسان وَاختلفا فدعا عمر أبى بن كعب وسأله عن ذلك فأقرَّ قراءة زيد وأقسم له أنَّ رسول الله أقرأنيها وأنت تبيع الحنطة فأقرَّ عمر قراءة زيد .

أمَّا آية آخر سورة التوبة وهى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩ / ١٦ .
(٢) السيوطي ـ الإتقان ١ / ٩٣ .
(٣) المصاحف ص١٦ .
(٤) الزركشي ـ البرهان ص٢٣٨ .

تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ وجدها مكتوبة مع أبي خزيمة(١) ابن ثابت الأنصاري وقبلها زيد بن ثابت لثبوتها وقضاء الحجة على تواترها ، فقد اجتمع في هذه الآية زيد بن ثابت الذي كان يحفظها وأبو خزيمة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال : أشهد أنّي سمعتهما ثمّ قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فألحقوها في آخرها(٢) .

وروى ابن أبي داود عن جعفر عن الربيع عن أبي العالية أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبي بن كعب فلمّا انتهى إلى هذه الآية من سورة براءة وهي قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾ (التوبة) فظنوا أنّ هذا آخر ما أُنزل من القرآن ، فقال أبي : إنّ رسول الله ﷺ قد أقرأني بعدهنّ آيتين : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ (التوبة) . قال : فهذا آخر ما أُنزل من القرآن فختم الأمر بما فتح به(٣) .

وهكذا ظلّ زيد بن ثابت ومعاوية بجمع القرآن في صبر وأناة فيأخذ عن هذا من عسبه وعن هذا من لخافة ومن صدور الحفاظ حتى جمعه كله .

وقد بلغ عدد المعاونين لزيد بن ثابت في جمع القرآن والذين تولوا

---

(١) هناك خلاف بين الرواة حول اسم من وجدت معه آخر سورة التوبة ، فالبعض يقول خزيمة الأنصاري وقيل أبي خزيمة ، والصحيح أنه أبو خزيمة بالكتبة أما خزيمة بن ثابت فقد جعل النبي شهادته بشهادتين في قصة الفرس الذي ابتاعها رسول الله ﷺ من الأعرابي فأنكر الأعرابي البيع فشهد خزيمة هذا بتصديق رسول الله ﷺ فأمضى شهادته وقبض الفرس من الأعرابي .

(٢) السيوطي ـ الإتقان ١ / ٩٤ .

(٣) المصاحف ص٩ .

كتابته وتدوينه خمسة وعشرين رجلاً من قريش وخمسين رجلاً من الأنصار ، وأمرهم الخليفة أن يكتبوا القرآن ويعرضوه على سعيد بن العاص فإنه رجل فصيح ، وهذه اللجنة إذا صحَّ التعبير قامت بمهمتها خير قيام(١) .

وكانت الأمانة رائدهم في هذا الجمع ، يقول ابن كثير : وكانوا أحرص شيء على أداء الأمانات وهذا من أعظم الأمانة لأنَّ الرسول ﷺ أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أيُّها الرسول بلِّغ ما أُنزلَ إلَيْكَ من ربِّكَ ﴾ ففعل صلوات الله عليه ولهذا سألهم في حجّة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد والصحابة أوقر ما كانوا مجتمعين فقال : « إنَّكم مسئولون عنِّي فما أنتم قائلون » قالوا : نشهد أنَّك بلغت وأدّيت ونصحت فجعل يشير بإصبعه إلى السماء عليهم ويقول : « اللَّهمَّ أشهد اللَّهمَّ أشهد اللَّهمَّ أشهد » وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب وقال : « بلِّغوا عنِّي ولو آية » يعني ولو لم يكن مع أحدكم سوى آية واحدة فليؤدها إلىَّ من وراء فبلغوا عنه ما أمرهم به فأدُّوا القرآن قرآناً والسُنَّة سُنَّة لم يلبسوا هذا بهذا ، ولهذا قال ﷺ : « مَن كتب عنِّي سوى القرآن فليمحه » أى لئلاَّ يختلط شيء بالقرآن وليس معناه أن لا يحفظوا السُنَّة ويرووها والله أعلم .

فلهذا نعلم بالضرورة أنه لم يبق من القرآن مما أدّاه الرسول ﷺ إليهم إلاَّ وقد بلغوه إلينا ولله الحمد والمنة(٢) .

وبهذا الجمع العظيم الذي سار وفق نظام دقيق وقواعد مقننة ورقابة يقظة حيث تضافرت فيه الجهود واتحدت فيه القلوب وارتبطت فيه

(١) اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ٢ / ٩٢ .
(٢) فضائل القرآن ص٦٤ .

العزائم والهمم ، وتوافرت له صفة التواتر على قطعية الثبوت فيكون قد حفظ للإسلام أصل الشريعة ومنبعها بفضل الله وتوفيقه .

ثبوت الثقة للكتابة والمكتوب

على أنَّ ثبوت الثقة وتوافرها قد تحققت في كتَّاب الوحي العظام الذين تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ كلمة كلمة وحرفاً حرفاً فحفظوه في قلوبهم ودوّنوه في صحائفهم وكانوا نموذجاً للأمانة والصدق والإخلاص في الحفظ والأداء وكانوا أسوة لمن جاء بعدهم . حيث احتفظوا بما معهم من الصحائف والرقاع التي دوّنوا فيها القرآن وكانت أغلى عندهم من كل نفيس وأحبَّ إليهم من كل جليس وونيس وكانت مصدرهم في القراءة والترتيل ، يتدارسون فيها القرآن ويحفظون منها ما تيسَّر لهم . فكان هذا حالهم إلى أنَّ عزم الصديق رضي الله عنه على جمع القرآن وترتيبه ، وينهض زيد يطلب هذه الرقاع فدفعوها إليه وعاونه على أداء مهمته ، لأنهم كانوا يبدون عن تأليف معجم منظم معروف وقد شاهدوا تلاوته من النبي ﷺ عشرين سنة فكان تزويد ما ليس منه مأموناً وإنما كل الخوف من ذهاب شيء من صحيحه(١) .

أما الشروط والضوابط التي وضعت أثناء جمع القرآن فقد كان الهدف منها التحقيق من أنَّ المنقول والمجموع هو عن المكتوب بين يدى النبى ﷺ مع مطابقة المقروء بالمكتوب ، والتثبيت من ذلك .

إذا لم تكن البيّنة على أصل القرآن فقد كان معلوماً لهم دائماً كانت على ما أحضروه من الرقاع المكتوبة فطلب البينة عليها أنها كتبت بين يدى رسول الله وبإذنه على ما سمع من لفظه(٢) .

وبهذا يكون قد حظى القرآن بكل العناية والرعاية والتقديس

---

(١) الزركشي - البرهان ص٢٣٨ .

(٢) أبو شامة - المرشد الوجيز ص٦٠ .

والإجلال والضبط والدقة والتروي والتحري والاحتياط والانضباط في تدوين كل حرف من حروفه وآية من آياته وضم كل ما نزل من القرآن في مصحف واحد ليسهل الرجوع إليه في الحفظ والتلاوة وكل ما حظى به القرآن من العناية والحفظ يعد من وسائل حفظ الله لكتابه .

خصائص جمع القرآن في عهد الصديق رضي الله عنه

سبق وأن تناولنا بالبحث والدراسة حفظ القرآن وتدوينه على عهد رسول الله ﷺ في أدوات الكتابة كالرقاع والعُسُب والأكتاف والأضلاع وغيرها عن طريق الكتّاب الذين برعوا في القراءة والكتابة وكتبوا القرآن الكريم كله بحيث كان الرسول ﷺ يملي عليهم ذلك ، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلاَّ وكان القرآن مكتوباً في السطور محفوظاً في الصدور مرتب الآيات في سورها ، وخلال هذه الفترة لم يكتب الصحابة شيئاً سوى القرآن لصريح النهى الوارد على لسان رسول الله ﷺ(١) .

فلمَّا تولى الصديق أمر الخلافة أمر بجمع القرآن من الأدوات المتفرقة التي كتب عليها وجعلها في مصحف واحد وكان الباعث على هذا الجمع حفظ كتاب الله عزَّ وجلَّ والخوف عليه من التعرض لضياع شيء منه بسبب موت الحفاظ والقراء كما حدث في موقعة بئر معونة ومعركة اليمامة ، ومن هنا أمر بجمعه في مصحف واحد .

وقد تميّز هذا الجمع بعدَّة خصائص ومميزات أهمها ما يلي :

١ ـ أنَّ هذه الصحف كتب فيها القرآن كلُّه مرتب الآيات في سورها وجمعه بين اللوحين وهذه ميزة تخالف ما كتب بين يدى النبى ﷺ فقد كان مفرقاً في العُسُب واللخاف والرقاع عند كتَّاب الوحى ومنهم من كتبه كله ومنهم من كتب بعضه لغيابه عند نزول الوحى .

---

(١) أنظر ص٤٥ من هذا البحث .

٢ ـ أنَّ هذه الصحف اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته بخلاف بعض مصاحف الصحابة فربما حفظ بعضهم آية نسخت ولم يبلغه النسخ(١) وربما كتب بعضهم في مصحفه الناسخ والمنسوخ .

٣ ـ أنَّ الصحف التي تم جمعها في عهد الصديق لم يكتب فيها سوى ما تواتر وأجمع عليه الجميع وأقرُّوه وتحقق عندهم جميعاً قرآنيته بخلاف مصاحف الصحابة وبعض صحفهم فإنَّ كلاً منهم كان يكتب ما سمعه من النبي ﷺ وأن لم يسمعه غيره .

أما الجمع في عهد الصديق فقد خضع للتثبت البالغ والحذر الدقيق والتحري الشامل فلم يقبل إلاَّ من تقوم به الحجة من عدد التواتر ، وبلغ من الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله ﷺ للتأكد من اتصال السند الكتابي بالأخذ عما كتب بين يدى رسول الله ﷺ .

وقد ذكر أبو داود أنَّ أبا بكر لما عزم على جمع القرآن قال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه(٢) .

٤ ـ أنَّ هذه الصحف التي كتبت في عهد أبي بكر كتبت على الأحرف السبعة بخلاف مصاحف الصحابة رضى الله عنهم فإنَّ كل صحابي كتب المصحف على الحرف الذي تلقاه عن النبى ﷺ ، وكذا يُقال فيما كان يحفظه كل منهم في صدره ، وأمَّا ما كانوا يكتبونه بين يديه ﷺ فقد كان جامعاً للأحرف أيضاً لكن يجوز أنه كان يملى الكاتب فيكتب على رسم يحتمل الأحرف السبعة أو على رسمين أو أكثر إن لم يحتملها رسم واحد ويجوز أنه عند احتمال رسم واحد للأحرف كلها كان يملى أحد الكتَّاب

---

(١) انظر مبحث النسخ من هذا الكتاب .

(٢) المصاحف ص٦ .

فيكتب على رسم واحد يحتمل حرفاً أو بعض الأحرف ويملى على غيره فيكتب على رسم آخر يحتمل غير ذلك من الأحرف(١) .

تصويب

قد ذهب البعض إلى القول بأنَّ المنسوخ قد زالت قرانيته على صيغة الإطلاق من القول وقد جانبه الصواب في هذا وذلك لأنَّ أكثر النسخ في كتاب الله عزَّ وجلَّ أن يزال الحكم ويبقى المنسوخ متلواً ، ومعنى نسخت الكتاب إذا نقلته من نسخته .

وقد حكى أبو جعفر النحاس قول محمد بن جعفر الأنباري من طريق مجاهد ، ما نسخ من آية قال نزيل حكمها ونثبت خطها(٢) .

وعلى هذا فإنَّ القول بأنَّ المنسوخ قد زالت قرآنيته على الإطلاق دون تفصيل أو بيان ليس صحيحاً .

أماكن الصحف القرآنية

سبق وأن أشرنا إلى أنَّ القرآن الكريم قد تمَّ جمعه وتدوينه على يد جماعة من صفوة الصحابة يتقدمهم سيّدنا زيد بن ثابت ، وكان هذا الجمع بأمر من خليفة المسلمين أبي بكر رضي الله عنه ، وقد تحقق ذلك بفضل الله وتوفيقه . ثمَّ أخذت الصحف وأودعت عند أبي بكر وظلّت عنده حتَّى وفاته ثمَّ انتقلت من بعده إلى عمر بن الخطاب ، فلمَّا توفي انتقلت هذه الصحف إلى حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضى الله عنها وظلَّت عندها إلى أن تولَّى الخلافة عثمان بن عفان فأرسل إليها فأبت أوّل الأمر أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردنها إليها بعد نسخها فبعثت بها إليه فنسخها في هذه

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن ص١٠١

(٢) الناسخ والمنسوخ ص١٤ .

المصاحف ثمَّ ردَّها إليها فلم تزل عندها حتى أرسل مروان فأخذها فأحرقها(١) .

وقال ابن حجر : إنَّما كانت الصحف عند حفصة لأنها كانت وصية عمر فاستمر ما كان عنده عندها حتى طلبه منها من له طلب(٢) .

وجدير بالملاحظة أنَّ حفظ هذه الصحف عند الخلفاء بحيث لا تتعداهم دليل على أنَّها معدودة من الملكية العامة ، فلو كانت ملكاً خاصاً لأبي بكر لورثته أبنائه من بعده وأغلب الظّن أنَّها لم توضع لدى حفصة بنت عمر إلاَّ لتكون رهنى تصرف الخليفة الثالث حين يطلبها وقد حدث بالفعل(٣) .

وإذا اتضح لنا من أقوال المؤرخين الموثوق بهم أنَّ هذه الصحف القرآنية قد حظيت بكل عناية وحماية من الخلفاء والصحابة رضى الله عنهم حتى في التحفظ عليه إذا وضح ذلك فلا يجب أن نلتفت إلى ما يثار من شبهات عن طريق المستشرقين والمغرضين وأعداء الإسلام أمثال بلاشير وجولدتسيهر الذين مازالوا يسعون إلى توهين وإضعاف صلة المسلمين بدينهم وبكتاب ربهم عن طريق نشر الأغاليط والمفاهيم الخاطئة بينهم .

* * *

(١) ابن أبي داود ـ المصاحف ص١٠ .
(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩ / ١٨ .
(٣) د/ عبد الصبور شاهين ـ تاريخ القرآن ص١٧٩ .

جمع الصحابة للقرآن

هناك روايات تشير إلى أنَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قد جمع القرآن لما قبض رسول الله ﷺ فيذكر ابن أبي داود عن محمد بن سيرين قال : لما توفى النبى ﷺ أقسم أن لا يرتدي برداء إلاَّ لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام وقال له : أكرهت إمارتي ياأبا الحسن قال : لا والله .. إلاَّ أنِّي أقسمت أن لا أرتدي برداء إلاَّ لجمعة فبايعه ثمَّ رجع(١) .

وقد ورد من طريق آخر أخرجه ابن الضريس في فضائله حدثنا بشر بن موسى حدثنا هودة بن خليفة حدثنا عون عن محمد بن سيرين عن عكرمة قال : لما كان بعد بيعة أبي بكر قعد عليّ بن أبي طالب في بيته فقيل لأبي بكر فذكره بيعتك فأرسل إليه فقال : أكرهت بيعتي ، قال : لا والله ، قال : ما أقعدك عنِّي ؟ قال : رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسي أن لاألبس ردائي إلاَّ لصلاة حتى أجمعه ، قال له أبو بكر فإنَّك نعم ما رأيت ، قال محمد : قلت لعكرمة : ألقوه كما أنزل الأول فالأول ، قال : لو اجتمعت الجن والإنس على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا(٢) .

كما أخرج ابن اشته في المصاحف أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ وأنَّ ابن سيرين قد تطلب ذلك الكتاب فلم يقدر عليه(٣) .

وقد زاد اليعقوبي هذا الأمر وضوحاً فأشار إلى صفة هذا الجمع ونظام تقسيمه وطريقة ترتيبه فذكر أنَّ عليّ قد جزّأه سبعة أجزاء :

الجزء الأول : البقرة وسورة يوسف والعنكبوت والروم ولقمان وحم والسجدة والذاريات وهل أتى على الإنسان والم تنزيل السجدة والنازعات

---

(١) المصاحف ص١٠ .

(٢) السيوطي ـ الإتقان في علوم القرآن ١ / ٩٢ .

(٣) المصاحف ص٥٠

وإذا الشمس كوّرت وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت وسبّح اسم ربّك الأعلى ولم يكن قد جزأ البقرة ثمانمائة وست وثمانون آية وهو خمس عشرة سورة .

الجزء الثاني : آل عمران وهود والحج والحجر والأحزاب والدخان والرحمن والحاقة وسأل سائل وعبس والشمس وضحاها وإنّا أنزلناه وإذا زلزلت وويل لكلّ همزة والم تر ولإيلاف قريش ، فذلك جزء آل عمران ثمانمائة وست وثمانون آية وهو ست عشرة سورة(١) .

الجزء الثالث : وهو النساء والنحل والمؤمنون ويس وحمعسق والواقعة وتبارك الذي بيده المُلك ويا أيُّها المدثِّر وأرأيت وتبّت يدا وقل هو الله أحد والعصر والقارعة والسماء ذات البروج والتين والزيتون وطس النمل ـ فذلك جزء النساء ثمانمائة وست وثمانون آية وهو ست عشرة سورة .

الجزء الرابع : وهو المائدة ويونس ومريم وطسم الشعراء والزخرف والحجرات وق والقرآن المجيد واقتربت الساعة والممتحنة والسماء والطارق ولا أقسم بهذا البلد والم نشرح لك والعاديات وإنّا أعطيناك الكوثر وقل يا أيُّها الكافرون ـ فذلك جزء المائدة ثمانمائة وست وثمانون آية وهو خمس عشرة سورة .

الجزء الخامس : ويتكون من الأنعام وسبحان واقتربت الساعة والفرقان وموسى وفرعون وحم المؤمن والمجادلة والحشر والجمعة والمنافقون ون والقلم وإنّا أرسلناك ونوحاً وقل أوحى إلى والمرسلات والضحى وألهاكم ـ فذلك جزء الأنعام ثمانمائة وست وثمانون آية وهو ست عشرة سورة(٢) .

الجزء السادس : ويتكون من الأعراف وإبراهيم والكهف والنور وص والزمر والشريعة والذين كفروا والحديد والمزمل ولا أقسم بيوم القيامة

---

(١) اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ٢ / ٩٢ .
(٢) المصدر السابق ٢ / ٩٣ .

وعم يتساءلون والغاشية والفجر والليل إذا يغشى وإذا جاء نصر الله ـ فذلك جزء الأعراف ثمانمائة وست وثمانون آية وهو ست عشرة سورة(١) .

الجزء السابع : الأنفال وبراءة وطه والملائكة والصافات والأحقاف والفتح والطور والنجم والصف والتغابن والطلاق والمطففين والمعوذتين فذلك جزء الأنفال ثمانمائة وست وثمانون آية وهو خمس عشرة سورة .

وقال بعضهم أنَّ علياً قال : نزل القرآن على أربعة أرباع ، ربع فينا وربع في عدوّنا وربع أمثال وربع محكم ومتشابه .

ولم يكن علياً رضي الله عنه وحده هو الذي جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ بل كان هناك من الصحابة أيضاً كسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث تشير بعض الروايات إلى أنه جمع القرآن ، فقد أخرج ابن أبي داود أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل عن آية من كتاب الله فقيل كانت مع فلان قد قُتل يوم اليمامة ، فقال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون وأمر بالقرآن فجمع وكان أوّل من جمعه في المصحف(٢) .

وهذه الرواية التي تشير إلى جمع عليّ للقرآن مردودة لقيام الدليل على ضعفها ووهنها ، فقد صرّح ابن حجر بأنَّ هذا الأثر ضعيف لانقطاعه وبتقدير صحته فمراده بجمعه حفظه في صدره(٣) .

وصرّح البعض بأنَّ الخبر الوارد بشأن مصحف عليّ شيعي المنبع لأنه غير شائع(٤) ، وكذلك ما روى عن عمر بن الخطاب من أنه أمر بجمع القرآن فهو مردود أيضاً وذلك لانقطاع سنده(٥) .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصاحف ص١٠ .
(٣) السيوطي ـ الاتقان ١ / ٩٢ .
(٤) الرافعي ـ الإعجاز في القرآن والسُنَّة ص١٧ . .
(٥) المصدر السابق .

ولكن الروايات الكثيرة الصحيحة تجمع على أنَّ هذه الخطوة كانت من أبي بكر وفي عهده وبمشورة عمر ، وأنَّ ذلك كان للمرة الأولى في تاريخ الأمة تأثراً بما حدث من نكبة عامة يوم اليمامة(١) .

وعلى تقدير أنَّ هذه الرواية صحيحة في حق عليّ بن أبي طالب فهو من قبيل الجمع الفردي الذي يحرص عليه الصحابة رضى الله عنهم إجلالاً للقرآن وحرصاً منهم على الاحتفاظ به مكتوباً ليظل معهم إذا أرادوا الحفظ والتلاوة وبخاصة في شهر رمضان وقد يكن الباعث على هذا الجمع ما تعلمه من رسول الله ﷺ من أنَّ القرآن يجب أن يتعهدوه بالحفظ والتلاوة خشية أن يتفلت منهم حيث أخرج الشيخان عن أبي موسى عن النبى ﷺ قال : « تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها »(٢) ، فتسابقوا إلى كتابته .

لكن هذه المصاحف التي دوّنها بعض الصحابة تعد مصاحف فردية لم تتوافر لها صفة الإجماع كالتي توافرت لصحف أبي بكر رضي الله عنه من إجماع الصحابة رضى الله عنهم على صحة وثبوت هذا الجمع ، هذا من ناحية كما أنها اشتملت على الناسخ والمنسوخ منه الآيات القرآنية بخلاف مصحف الصديق رضي الله عنه وهذه ناحية أخرى .

فهناك فروق واضحة بين مصاحف الصحابة والمصحف الذي جمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه فهو فريد من نوعه من حيث مزاياه التي توافرت له ، ولهذا يعد أبو بكر من أعظم الناس أجراً في المصاحف ، فقد أخرج أبو داود عن عليّ رضي الله عنه قال : (رحم الله أبا بكر هو أول من جمع بين اللوحين)(٣) .

---

(١) عبد الصبور شاهين - تاريخ القرآن ص١٧٤ .

(٢) البخاري فضائل القرآن (٣) المصاحف ص٥ .

كما صرّح أبو عمرو الدّاني أنَّ أوّل من جمع القرآن بين اللوحين هو أبو بكر رضي الله عنه(١) .

وفي هذه الروايات السابقة دلالة واضحة تشير إلى أنَّ جمع عليّ وغيره من الصحابة للقرآن يختلف اختلافاً كاملاً عن جمع أبي بكر رضي الله عنه فهو أول من جمع بين اللوحين(٢) .

أضف إلى هذا كله لو أنَّ عليّ أو غيره من الصحابة قد تضمن القرآن كله دون ما نسخ من القرآن لاكتفى الخليفة والمسلمون بهذا الجمع ولم يصبحوا بحاجة إلى جمع آخر بل قد اكتفى سيّدنا عمر بمصحفه أو بمصحف عليّ ولم يشر على أبي بكر بجمع القرآن ولكنه رأى من الواجب على المسلمين أن ينهضوا بجمع هذا القرآن بحيث يكون في مصحف واحد مرتب الآيات والسور ورأى أيضاً من الواجب الديني أن يبذل النصيحة خالصة لخليفة المسلمين ويوضح له أهمية هذا الأمر وما يترتب عليه من آثار إيجابية تعود على الإسلام والمسلمين بالنفع والخير الوفير من وراء جمعهم للقرآن الكريم فلم يتردد في أن يشير على أبي بكر بجمعه(٣) .

ولم يتردد الصديق رضي الله عنه إلاَّ بقدر قياس هذا العمل الذي سيقدم عليه على أفعال الرسول ﷺ فقد كان شديد التأسي والتأثر برسول الله ﷺ ، فلما انشرح صدره وارتاحت نفسه شرع في الإعداد والجمع .

ويؤكد الزركشي فضل الصديق في أنه أوّل من جمع القرآن جملةً واحدة وبإجماع الصحابة جميعاً فيقول : (والمشهور عند الناس أنَّ جامع القرآن عثمان رضي الله عنه وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد

---

(١) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص٣ .

(٢) انظر خصائص جمع القرآن في عهد أبي بكر] .

(٣) انظر السيوطي ـ الاتقان في علوم القرآن ١ / ٩٢ ، والزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٣٣ ، والزرقاني ـ مناهل العرفان ص٢٥٠ ، وأبو داود السجستاني ـ المصاحف ص٦ .

على اختيار بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام من حروف القراءات والقرآن ، وأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات علي الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن ، وأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق(١) .

بهذا يثبت لسيّدنا أبي بكر رضي الله عنه الفضل في جمع القرآن الكريم أوّل مرّة في مصحف واحد مرتب الآيات والسور ، فهو أعظم الناس أجراً في المصاحف لأنه أوّل من جمع بين اللوحين ، ويكون بهذا العمل العظيم قد قدَّم للإسلام خدمة جليلة في الحفاظ على دستورها العظيم .

يقول ابن كثير : إنَّ ما فعله الشيخان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما من أكبر المصالح الدينية وأعظمها من حفظهما كتاب الله في المصحف لئلاً يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله ﷺ ، ثمَّ كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته ثمَّ أخذها عمر بعده فكانت عنده محروسة معظمة مكرمة ، فلما مات كانت عند حفصة أم المؤمنين لأنها كانت وصيته من أولاده على أوقافه وتركته(٢) .

لقد ترتب على جمع القرآن حل مشكلة أصولية ترتب على حلها سلامة النص القرآني من التحريف وهو الأساسالذي انطلقت منه حركة الحضارة الإسلامية في التاريخ مطمئنة إلى دستورها المنزل المحفوظ وهو أيضاً القاعدة التي اتخذت مقياساً لكلّ اصلاح لرسم المصحف أو كتابته فيما بعد(٣) .

وصفوة القول في هذه القضية ، والجواب الشافي في هذه المسألة أنَّ ما جاءت به الروايات بشأن جمع سيّدنا عليّ بن أبي طالب للقرآن وأيضاً

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص٢٣٩ .
(٢) فضائل القرآن ص٦٥ .
(٣) د/ عبد الصبور شاهين ـ تاريخ القرآن ص١٧٤ .

سيّدنا عمر إن صحّت هذه الروايات فهي لا تتجاوز المحاولات الفردية التي يقوم بها الصحابة بهدف تقييد ما حفظوه من كتاب الله عزّ وجلّ مخافة النسيان أو الخطأ أو الخلط أو التبديل بل ربما كتب فيها إلى جانب القرآن تفسيراً لمعنى أو دعاء مأثور أو سبب لنزول هذه الآيات وهو في قرار نفسه يستطيع أن يفرّق بين القرآن وغيره إن أراد الرجوع إليه أو القراءة فيه ، ومن ثمَّ لا يعول عليها بالرغم من صحتها .

وبهذا العمل العظيم وهو جمع القرآن الكريم يكون الصديق قد حافظ على دستور المسلمين وأساس عقيدتهم ، كما حافظ من قبل على دعوة المسلمين في حروبه مع المرتدين .

فجمع القرآن منقبة خالدة تضاف إلى فضائله فقد سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة فما جمع القرآن أحد بعده إلاَّ وكان له مثل أجره إلى يوم القيامة .

فرحم الله أبا بكر رضي الله عنه وأعظم له الأجر جزاء ما قدم للإسلام والمسلمين من خير وبر .

* * *

الفصل السادس

جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه

تمهيد

سبق وأن تناولنا بالبحث والدراسة جمع القرآن في عهد سيّدنا أبي بكر رضي الله عنه وقلنا إنَّ هذا الجمع هو الأول من نوعه من حيث الطريقة المنظمة والدقة البالغة والتحري الشديد في تدوين الآيات وجمعها ووقفنا على قدر الجهود المبذولة من الصحابة جميعاً لإنجاز هذا الجمع ، وهذه الجهود جاءت نتيجة شعور الجاه بخطورة المسئولية وأهميتها ، كما كانت عناية الله ترمقهم في كل خطواتهم حتى فرغوا من جمعه وتدوينه وتم لهم ما أرادوا بعون الله وتوفيقه ، وظلَّ القرآن على هذه الصفة .

وبهذه الكيفية حتى تولَّى سيّدنا عثمان الخلافة وفي عهده تطورت الأمور وتغيرت أحوال المسلمين حيث اتسعت حركة الفتوحات الإسلامية وساحت في البلاد شرقاً وغرباً وبسط الإسلام سلطانه على أكثر البلاد وأقبل وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومشاربهم فضلاً عن اختلاف عاداتهم وتقاليدهم وصاحبت حركة الفتوحات الإسلامية حركة علمية أخرى لا تقل في أهميتها ودورها الفعّال عن سابقتها فكل من الحركتين دوره الإيجابي في تنشئة المجتمع وتربيته تربية صالحة سليمة على أساس من القيم والفضائل التي جاء بها الإسلام .

وانطلق الصحابة في كل الأقطار ينشرون تعاليم الإسلام ويبلغون عن الله منهجه ، ولا شك أنَّ القرآن الكريم كان يتصدر العلوم الشرعية التي سعى الصحابة إلى نشرها وتعليمها للمسلمين .

وقد تفرّق الصحابة في بلاد شتّى فكان أهل كل إقليم من أقاليم

الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ممَّن تلقوا على أيديهم قراءة القرآن ، فأهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود وأهل البصرة يقرءون بقراءة أبي موسى الأشعري وأهل حمص يقرءون بقراءة عبادة بن الصامت وأهل دمشق يقرءون بقراءة أبي الدرداء وأهل فلسطين يقرءون بقراءة معاذ ، وهكذا(١) .

هذا بالإضافة إلى أنَّ القرآن الكريم كما هو معلوم نزل على سبعة أحرف كلها شافية كافية . وكلها صحيحة بإقرار رسول الله ﷺ عندما سأله الصحابة(٢) .

فكل قارئ يقرأ بما تيسَّر له وكان القراء من أماكن مختلفة وأقطار متعددة فكل هذه الأسباب مجتمعة أدَّت إلى وجود اختلاف في النطق والأداء بين المسلمين أثناء قراءتهم للقرآن حتى تطور ووصل إلى مرحلة النزاع والشقاق .

صفة الجمع في عهد عثمان

كانت الغاية والمقصد من هذا الجمع في هذه المرة كتابة القرآن المتواتر جميعه مرتب الآيات والسور في مصحف واحد ونشرها في الأمصار ليصبح هذا المصحف الإمام الذي لا اختلاف عليه ولا منازع فيه ،

وقد اقتصر فيه على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم مما أدّى إلى جمع المسلمين على مصحف واحد وقراءة واحدة(٣) .

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ٢ / ٢٥٧ .

(٢) انظر البخاري ـ فضائل القرآن .

(٣) العمل على جمع صفوف المسلمين وإزالة أسباب الخلاف والشقاق بينهم والسعي إلى تحقيق الوحدة بينهما فريضة إسلامية ، قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا ويذهب ريحكم ﴾ .

أسباب الجمع

يرجع المؤرخون والمحدثون أسباب جمع عثمان بن عفان للقرآن في عهده إلى ظهور الاختلاف الواضح في وجوه قراءة القرآن ، إذا كانت وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي أنزل عليها القرآن وكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار يتعجب وينكر على غيره قراءته ويرى فيها مخالفة لما اعتاد من القراءة .

وقد ظهر هذا الأمر على أثر تفرق القراء من الصحابة في الأمصار وانتشارهم في القرى والأقاليم من أجل نشر تعاليم الإسلام وتفقه الناس في أمور دينهم وتعلمهم القرآن الكريم فقد كان صحابي يقرأ القرآن بالحرف الذي تلقاه عن النبي ﷺ وحفظه في صدره حيث إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف وكلها كافية شافية(١) ، فكان كل قارئ يقرأ بما تيسّر له على حسب ما تعلم من إمامه .

وقد بدأت نذر الاختلاف في طريقة الأداء والقراءة تظهر بين المسلمين وأخذت الفروق تتسع شيئاً فشيئاً من غير عمد منهم بل إنّ القراء من الصحابة (رضى الله عنهم) كانوا يتحرون وجه الصحة في الكيفية والأداء بقدر الطاقة والوسع حتى اشتدّ الخطر واحتدم الأمر واستفحل الداء حتى وصل الأمر إلى أنّ كفّر بعضهم بعضاً وكادت أن تكونّ فتنة في الأرض وفساد كبير .

فقد أخرج ابن أبي داود من طريق أبي قلابة قال : لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة رجل آخر فجعل الغلمان يتلقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفّر بعضهم بعضاً فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال : (أنتم عندي فيه تختلفون فمن بعد

---

(١) الأحاديث الواردة بشأن نزول القرآن على سبعة أحرف كثيرة وفي الكتب الصحاح ومنها ما أخرجه البخاري .. الخ .

عني من الأمصار أشد اختلافاً وأشد لحناً اجتمعوا يا أصحاب محمد واكتبوا للناس إماماً)(١) .

وقد تحقق ظن خليفة المسلمين فيما توقع إذ كان الخلاف في وجوه القراءة وحروف الأداء يشتد يوماً بعد يوم ويتصاعد في البلاد النائية على مر الأيام ، وقد شاهد الصحابة أنفسهم هذا الخلاف بين المسلمين أثناء غزوهم للبلاد لنشر مبادئ الإسلام السمحة فقد كانت الأمصار النائية أشد اختلافاً ونزاعاً من المدينة والحجاز وكان الذين اختلاف القراءات من تلك الأمصار إذا جمعتهم المجامع أو التقوا على جهاد أعداءهم يعجبون من ذلك وكانوا يبلغوا في التعجب والإنكار كلما سمعوا زيادة في اختلاف طرق أداء القرآن ويؤدي بهم العجب إلى الشك .

وتيقظت الفتنة التي كادت تطيح فيها الرءوس وتسفك الدماء وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم وانقسامهم على أنفسهم(٢) .

ويصور الأستاذ الرافعي خطورة هذا الخلاف في القراءة والأداء بقوله : (وكانت وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها كما سيمر بك فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار إذا احتوتهم المجامع لو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحد فإذا علم أنَّ جميع القراءات مسندة إلى رسول الله ﷺ وأنه أجازها لا يمنع أن يحيك في صدره بعض الشك وأن تنطوي منها على شيء إذ هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة وبعد أن اجتمع العرب على كلمة واحدة فلا يلبث أن يجري ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى

---

(١) المصاحف ص٢١ .

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٢٥٦ .

بعضه خيراً من بعضه ويظن منه الصريح المدخول والعالي والنازل والأفصح والفصيح ، وهذا أمر إن هو استفاض فيهم ثمَّ مردوا عليه خرجوا ولا ريب إلى المناقضة والملاحاة وإلى أن يرد بعضهم على بعض ، هذا يقول : قراءتي وما أخذت به وذاك يقول : بل قراءتي وما أنا عليه وليس من وراء هذا اللجاج إلاَّ التكفير والتأثيم ولا جرم أنَّها الفتنة لا تفتأ بعد ذلك من ذم(١) .

كما ذكر أبو داود أنَّ ناساً بالعراق يسأل أحدهم عن الآية فإذا قرأها قال : ألا إنِّي أكفر بهذه ففشا ذلك في الناس واختلفوا في القرآن فكلم عثمان بن عفان في ذلك فأمر بجمع المصاحف وأحرقها ثمَّ بثها في الأجناد يعني التي كتبت(٢) .

وهناك روايات كثيرة ذكرت بطرق متعددة كلها تؤكد على مدى خطورة الخلاف في القراءة خلال تلك الفترة حتى وصل الخلاف إلى حد التكفير(٣) .

ولكن الأمر الذي أثار الخليفة وجعله يسارع في جمع الناس على قراءة واحدة ومصحف واحد عندما طارت إليه الأنباء عن طريق حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي كان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية(٤) وأذربيجان(٥) مع أهل العراق وأفزعه ما رأى من اختلاف الناس في القراءة حتى كان الرجل يقول لأخيه إذا سمع منه شيئًا من القرآن إنَّ قراءتي خير من

---

(١) إعجاز القرآن ص٣٥ .

(٢) المصاحف ص٢٣ .

(٣) ومعنى التكفير هنا كما ذكر في بعض روايات أبي داود وابن اشته معناه أنَّ كل واحد كان ينكر ما يقرأ الآخر ، ولا يعتقده قرآناً يجب الإيمان به وذلك إنما يتأتى في غير المتواتر ومانسخت تلاوته ولم يعلم القارئ بالناسخ قد علمه المنكر عليه .

(٤) أرمينية : اسم بلد عظيم في الشمال .

(٥) أذربيجان : مملكة عظيمة الغالب عليها جبال كثيرة القلاع فتحها المسلمون عام ٢٢ عنوة .

قراءتك فأسرع حذيفة بإخبار عثمان بذلك ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أنَّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي به أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن ارسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثمَّ نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان لرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنَّما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو صحف أن يُحرق(١) .

أما رواية ابن أبي داود من طريق الزهري عن أنس بن مالك أنَّ حذيفة بن اليماني قدم على عثمان بن عفان في ولايته وكان يغزو مع أهل العراق قبل أرمينية وأذربيجان في غزوهم ذلك الفرج ممّن اجتمع من أهل العراق وأهل الشام ويتنازعون في القرآن حتى سمع حذيفة من اختلافهم فيه ماذعره فركب حذيفة حتى قدم على عثمان فقال يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى في الكتب ففزع لذلك عثمان وأرسل إلى حفصة بنت عمر أن ارسلي إليَّ بالصحف التي جمع فيها القرآن فأرسلت بها إليه حفصة فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام أنْ ينسخوها في المصاحف وقال لهم : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من

---

(١) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ ابن حجر العسقلاني باب جمع القرآن .

عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فإنَّ القرآن أُنزل بلسانهم ، ففعلوا ذلك حتى كُتبت في المصاحف ثمَّ ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به فذاك زمان حرقت المصاحف في العراق بالنار(١) .

وتشير رواية أخرى بأنَّ حذيفة سمع هذا الاختلاف في القراءة والأداء داخل المسجد أبان ولاية الوليد بن عقبة على الكوفة ٢٥ ـ ٣٠ هـ ، فبينما حذيفة جالس بالمسجد إذ هتف هاتف من كان يقرأ على قراءة أبي موسى فليأتي الزاوية التي عند دار عبد الله واختلف في آية : ﴿ وأتموا الحج والعمرة للبيت ﴾ (البقرة) ، وقرأ هذا : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ فغضب حذيفة واحمرت عيناه ثم قام فغرز قميصه في حجزته وهو في المسجد وذاك في زمن عثمان فقال : إما أن يركب إليَّ أمير المؤمنين وإما أن أركب فهكذا كان من قبلكم ثمَّ أقبل فجلس فقال إنَّ الله بعث محمداً فقاتل بمن أقبل من أدبر حتى أظهر الله دينه ثمَّ إنَّ الله قبضه فطعن الناس في الإسلام طعنة جواد ثمَّ إنَّ الله استخلف أبا بكر فكان ما شاء الله ثمَّ إنَّ الله قبضه فطعن الناس في الإسلام طعنة جواد ثمَّ إنَّ الله استخلف عمر فنزل وسط الإسلام ثمَّ إنَّ الله قبضه فطعن الناس في الإسلام طعنة جواد ثمَّ إنَّ الله استخلف عثمان وأيم الله ليوشكنَّ أن يطعنوا فيه طعنة تخلفونه كله(٢) .

وتعطي هذه الروايات صوراً مختلفة وأشكالاً متباينة لذلك الخلاف الذي دار في المجالس ومجامع القوم فمن ميدان الحرب والقتال إلى ميدان العلم والمتعلمين واختلافهم مع تلاميذهم في القراءة والأداء .

* * *

(١) المصاحف ص٢٠ ، والطبري ـ جامع البيان ١ / ٢١ .

(٢) ابن أبي داود ـ المصاحف ص١٢ .

تحليل الروايات والرأي فيها

والحق أنَّ هذه الروايات جاءت من طريق ثقات وعدول فسيدنا أنس ابن مالك صحابي جليل ذو قدر ومنزلة والإمام الزهري من خيار التابعين الذين فاقوا أقرانهم علماً وعدالة وثقة ومن ثمَّ فهي نصوص شاهدة على خطورة الأمر وتفاقم الخطر وهو الاختلاف بين المسلمين في وجوه القراءة والأداء .

ويزيد المؤرخون هذا الأمر وضوحاً من خلال الأحداث التاريخية التي عاشها حذيفة بن اليماني وسعيد بن العاص أثناء رجوعهما من أذربيجان وكانا قد بعثا مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة وقد اشترك في هذا الغزو أهل الشام وأهل العراق ، فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت في سفارتي هذه أمراً لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثمَّ لا يقومون عليه أبداً ، قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت أناساً من أهل حمص(١) يزعمون أنَّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد ، ورأيت أهل دمشق(٢) يقولون : إنَّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم ، ورأيت أهل الكوفة(٣) يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود وأهل البصرة(٤) يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى ويسمون مصحفه لباب القلوب ، فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم مما يخاف فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين وقال له أصحاب ابن مسعود : ما تنكر ؟ ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه فقالوا : إنما أنتم أعراب فاسكتوا ، فإنكم على خطأ ، وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتينَّ أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول

---

(١) حمص : بلد مشهور قديم تقع بين دمشق وحلب وتعد من بلاد الشام . ياقوت الحموي - معجم البلدان

(٢) دمشق : هي قصبة الشام لحن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ومال . " " " "

(٣) الكوفة : بلد بأرض بابل من سواد العراق .

(٤) البصرة : إحدى مدن العراق العظمى .

بين الناس وبين ذلك فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وقام وتفرق الناس وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى وقال : أنا النذير العريان فأدركوا الأمة فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها وكانت هذه الصحف هي التي كُتبت في أيام أبي بكر رضي الله عنه فإنَّ القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر : إنَّ القتل قد استحر بقراء القرآن يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب من القرآن كثير وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعهم من الرقاع والعُسُب وصدور الرجال وظلت الصحف عند أبي بكر ثمَّ عند عمر ، فلما توفى عمر أخذتها حفصة فكانت عندها فأرسل عثمان إليها ليأخذها منها وأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف(١) .

وقت الجمع

وبعد هذا العرض السريع للروايات المختلفة التي تشير إلى أسباب جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه ، ومع تباينها في العرض والسياق إلاَّ أنها تدل دلالة واضحة على خطورة الأمر وأهميته .

وقبل أن نطوي هذه الصفحة يجب أن نشير إلى الوقت الذي حدث فيه الجمع والكتابة فتحديده محل خلاف بين المؤرخين والمحدثين على حد سواء(٢) .

فالروايات التاريخية تؤرخ لهذا الحدث في سنوات مختلفة ، فابن الأثير يؤرخ لهذا الحدث في وقائع سنة ٣٠ هـ ، بينما يؤرخ له الطبرى

(١) ابن الأثير ـ الكامل ٣ / ٩٢ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤ / ٢٨١ .

في سنة ٢٤ ، ٢٦ هـ على اختلاف في الروايات مما جعل بعض الباحثين(١) يشك في صحة هذا التاريخ وذلك لعدة أسباب منها :

١ ـ أما سعيداً ولي الكوفة سنة ثلاثين كما صرح ابن الأثير في تاريخه ويلزم لسيره من المدينة إلى الكوفة واشتغاله بالمكاتبة مع عثمان في شأن أهل الكوفة مدّة ولابد لغزوة جرجان بعد فتح طبرستان من مدة مريدة ثمّ ذهاب سعيد إلى أذربيجان وبعث حذيفة إلى الباب وعود حذيفة منه إلى سعيد وعودهما معاً إلى الكوفة وعرض حذيفة ما رأى من الاختلاف وسيره إلى المدينة وعرضه ما رآه على عثمان ومشاورة عثمان الصحابة وقيامه بتأليف لجنة جمع القرآن ، كل هذه أمور تحتاج إلى مدة طويلة قد لا تسعها سنة واحدة .

٢ ـ إنه لو فرض إتمام كل ما سبق في أثناء سنة خرقاً للعادة فإنّ استنساخ خمسة أو ستة مصاحف مع التدقيق والمقابلة والمراجعة لا يمكن أن يتم في بقية تلك السنة وإنما يتم بعد سنتين وقد توفي ابن مسعود وأبيّ ابن كعب سنة اثنين وثلاثين فإذا ابتدأ الجمع سنة ثلاثين لم يتم في حياتهم في الوقت الذي تذكر فيه الروايات ، أنّ هذا العمل قد تم في حياتهما .

٣ ـ إنّ سعيد بن العاص كان من الجامعين كما في صحيح البخاري فكيف يترك الكوفة الثائرة وهو لم يثبت أقدامه فيها بعد ثمّ يذهب هذه المدة الطويلة .

٤ ـ إنّ الذي في الصحيح أنّ حذيفة إنما رأى الاختلاف في غزوة أرمينية وأذربيجان وكان غزوهما في عهد عثمان سنة ٢٥ هـ ، بينما ذكر الطبرى أنّ غزوهما كان في سنة ٢٤ أو سنة ٢٦ هـ على اختلاف الروايتين في ذلك . لهذا كله لا يصح أن تكون إشارة حذيفة على عثمان بجمع القرآن في

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن الكريم ص ١٢٠ .

سنة ٣٠ هـ ، بل يجب أن تكون هذه الإشارة مع ما وليها من كتابة المصاحف وإرسالها سابقة على هذا التاريخ(١) .

يرى أحمد جودت أنه لا يعلم يقيناً تاريخ بدء كتابة المصاحف العثمانية فيقول : (لا نعلم في أي تاريخ بدأوا لكن سار إتمام المصاحف وإرسالها إلى الأمصار في سنة ثلاثين ، وفي أول هذه السنة ولى سعيد بن العاص على الكوفة مكان الوليد فحينما وصل المصحف إلى الكوفة وقال ابن مسعود ما قال كان سعيد هناك فبين وقوف حذيفة على الاختلاف في وجوه القرآن وبين إرسال المصاحف إلى البلدان مضى خمس سنين أو ما يقرب منها ولا تستكثر هذه المدة لمثل هذا العمل العظيم(٢) .

مشاورة عثمان للصحابة

أدرك عثمان بن عفان رضي الله عنه بثاقب فكره وصادق نظره بعد أن أطلعه حذيفة رضي الله عنه على حقيقة الأمر وما وصل إليه الحال في هذا المجال أدرك خطورة الموقف الذي يحتاج إلى السرعة في إيجاد الحل له وذلك قبل أن يستفحل خطره ويعظم شرّه فيتطاير شرره فأعدَّ العدّة لإزالة أسباب التنازع والشقاق فجمع أعلام الصحابة أهل الرأى والمشورة ليتبادلوا الرأى في علاج هذه الفتنة التي أطلت برأسها ووضع حد لذلك الاختلاف فأجمعوا رأيهم على استنساخ مصاحف يرسل منها إلى الأمصار وأن يؤمر الناس باحراق كل ما عداها .

ولم يعترض على عثمان أحد من الصحابة فكان هذا إجماعاً منهم وإقراراً على فعله ، قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : (لا تقولنَّ في عثمان إلاَّ خيراً فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلاَّ ملاء منا قال فما تقولون في هذه القراءة فقد بلغني أنَّ بعضهم يقول إنَّ قراءتي خير من قراءة ذلك

(١) العبادي ـ جمع القرآن ص١٢٠ .

(٢) خلاصة البيان في جمع القرآن ص٢٢ .

وهذا يكاد أن يكون كفراً) قلنا فما ترى ؟ قال : أرى أن يجتمع الناس على مصحف واحد فلا يكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا نعم ما رأيت(١) .

وبتنفيذ هذه القرارات يرأب الصدع ويجبر الكسر وتعتبر هذه المصاحف العثمانية هي المصدر الذي يرجع إليه القراء عند الاختلاف أو التنازع ، فشرع عثمان بن عفان في تكوين لجنة ممَّن يتقنون القراءة والكتابة لكي تتمكن من تحقيق المراد منها .

وبالفعل شرع عثمان في تنفيذ ما عزم عليه من جمع الناس على مصحف واحد بعد تأييد الصحابة ورضاهم عن فعله ، يقول القرطبي : (إنَّ عثمان رضي الله عنه جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك فاتفقوا على جمعه بما صحَّ) وثبت في القراءات المشهورة عن النبي ﷺ وإطراح ما سواها واستصوبوا رأيه وكان رأياً سديداً موفقاً ، رحمة الله عليه(٢) .

ويقول ابن خلدون : فجمع عثمان الصحابة فرأوا ما راه حذيفة فأرسل عثمان إلى حفصة أن ابعثي إلينا بالصحف ننسخها(٣) .

ويؤخذ من جمع عثمان للصحابة أمران :

الأول : تطبيق مبدأ الشورى بين المسلمين ، وعدم الانفراد بالرأى أو الانفراد بالحكم ، فكانت الشورى أساس حكم الخلفاء الراشدين حتى أصبحوا أئمة لغيرهم من الحكام والمحكومين في السير على النهج القويم .

الثاني : إشراك الصحابة معه في الأمر وأشهدهم على ما سيكون من نسخ وجمع القرآن الكريم للإقرار والتنفيذ بذلك فيضمن عدم الاعتراض والمخالفة على ما سيحدث .

---

(١) أبو داود السجستاني ـ المصاحف ص٢٠ .

(٢) المبتدأ والخبر في إخبار من غبر ٢ / ١٣٥ .

(٣) تفسير القرطبي ١ / ٤٢ .

اللجنة التي قامت بالتدوين

تعددت الروايات التي أخبرت عن عدد اللجنة التي اختارها سيّدنا عثمان بن عفان لتقوم بهذا العمل على أساس من الدقة والنظام ، فجاء في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه . عند البخاري أنَّ عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام نسخوها في المصحف(١) .

وعند أبي داود أنَّ عثمان جمع اثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار فيهم أبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وقال ابعثوا إلى الربعة التي في بيت عمر فجيء بها ، قال فكان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تدارعوا في شيء أخروه(٢) .

قال ابن سيرين أظنه ليكتبوه على العرضة الأخيرة ، وفي رواية مصعب ابن سعد : قال عثمان مَن أكتب الناس ؟ قالوا كاتب رسول الله ﷺ زيد ابن ثابت ، قال : فأى الناس أعرب ، وفي رواية أفصح ؟ قالوا : سعيد بن العاص ، قال عثمان فليمل سعيد وليكتب زيد(٣) .

ونستطيع أن نقف على إحصاء يوضح عدد الذين اختارهم عثمان ابن عفان رضي الله عنه لهذا الجمع وذلك إذا جمعنا الروايات المتعددة وضم بعضها إلى بعض واستخرجنا منها أسماءهم .

ففي أوّل الأمر تم اختيار الأربعة المذكورين في رواية الإمام البخاري ، أما من بقى من الاثنى عشر المذكورين في رواية أبي داود وقد وقع مفرقاً .

كما ذكر ابن حجر العسقلاني فقال : (منهم مالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس من روايته ومن رواية أبي قلابة عنه ومنهم كثير بن أفلح

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٩ / ٢١٠ .

(٢) المصاحف ص٢٥ .

(٣) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٢ ، وأبو داود السجستاني ـ المصاحف ص٢٣ .

كما تقدم ومنهم أبي بن كعب ومنهم أنس بن مالك وعبد الله بن عباس ووقع ذلك في رواية إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع عن ابن شهاب في أصل حديث الباب فهو في تسعة عرفنا تسميتهم من الاثنى عشر)(١) .

ولم يذكر اسم أنس بن مالك وعبد الله بن عباس من ضمن كتاب مصحف عثمان إلاَّ البخاري في تفسيره(٢) ، وأبو عمرو بن سعيد الدّاني(٣) ، وفي رواية إبراهيم بن إسماعيل ذكر من الكتاب عبد الله ابن عمرو بن العاص فيكون قد أتم العشرة(٤) .

ويلاحظ في تشكيل هذه اللجنة اقتداء عثمان بن عفان بسيدنا أبي بكر رضي الله عنه في الاختيار حيث وقع اختياره على زيد الذي كان بالأمس القريب يجمع القرآن من العُسب واللخاف وصدور الرجال بأمر الخليفة الأول واختار معه من يتقن لغة قريش ويفهمها فكان الثلاثة الذين معه وكلهم من بطون قريش وذلك لأنَّ القرآن نزل بلسانهم(٥) .

اعتمد الكتاب بعد أن شرعوا في الكتابة على النسخة التي جمعها أبي بكر رضي الله عنه لأنه هو السابق إلى جمع الجملة وأول من جمع بين اللوحين فكانت هذه الصحف هى المرجع الأول في كتابة المصاحف ، ثمَّ اعتمدوا أيضاً على ما كان عند الصحابة مفرقاً في الألواح والأكتاف والعُسُب والأوراق وقطع الأديم والتي سبق النقل منها وهى ما صرحت به رواية أبي داود من طريق مصعب بن سعد قال : قام عثمان فخطب فقال : أيُّها

---

(١) الحافظ ابن حجر ـ فتح الباري ١٩ / ٢٢ .

(٢) جامع البيان ١ / ٠٠٠

(٣) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص٧ .

(٤) المصدر السابق ص٧ .

(٥) انظر في ذلك فتح الباري ١٩ / ١٢ ، والسيوطي ـ الاتقان في علوم القرآن ١ / ٩٦ ، والزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٣٩ .

الناس عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن وتقولون قراءة أبي وقراءة عبد الله ، يقول الرجل والله ما تقيم قراءتك فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دخل عثمان فدعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاه عليك ، فيقول : نعم ، فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت ، قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص ، قال عثمان : فليمل سعيد وليكتب زيد فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس فسمعت بعض أصحاب محمد يقول قد أحسن(١) .

فقد ضمّ الكتاب كل القطع التي كتبها الصحابة بإملاء النبى ﷺ والتي كانت المصدر الأول قبل جمع أبي بكر رضي الله عنه ضموها إلى صحف أبي بكر رضي الله عنه .

ويرى بعض الباحثين أنه لا تعارض بين الرواية التي تشير إلى النسخ من صحف أبي بكر رضي الله عنه وبين الرواية التي تثبت الأخذ عما كان مكتوباً عند الصحابة من الألواح والأكتاف والأوراق وغيرها لأنَّ الكتاب جمعوا بين صحف أبي بكر رضي الله عنه وما كان مكتوباً عند الصحابة ، إذ كان لهذا الجمع فائدتان :

الأولى : الاحتياط الكامل والتأكد الشديد لما يكتبونه فهو من باب ضم اليقين إلى اليقين وبخاصة أنَّ ما بين الجمعين زمان يقترب من أربعة عشر عاماً .

الثانية : قد ترد بعض الكلمات في الصحف مكتوباً بغير لغة قريش فإذا أرادوا كتابته بلغة قريش لم يكن لهم بد من الرجوع إلى مستند

---

(١) ابن أبي داود ـ المصاحف ص٢٤ .

لذلك من هذه الرقاع المكتوبة بين يدى رسول الله ﷺ حتى لا يكون في المصحف العثماني حرف مكتوب إلا وهو موافق لما كتب بين يديه وبإملائه ﷺ(١) .

بينما يذهب صاحب إعجاز القرآن إلى القول باستحالة أن تكون كل هذه الروايات هى الواقع فيقول ما نصه : (ونحسب أنَّ اختلاف هذه الروايات وما جاء بمعناها من وجوه أخرى إنَّما بعث عليه تصور الرواة بلغ ما يكون من صور الثقة في هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فإنَّك لا ترى منها رواية إلاَّ وفيها مبالغة في التحري ليست في الأخرى وظاهر أنه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هى الواقع(٢) .

منهج الكتابة في مصحف عثمان رضي الله عنه

شرع سيّدنا عثمان رضي الله عنه في كتابة المصحف بعد أن اطمئنّ قلبه إلى صحة هذا القرار وبموافقة الصحابة وإقرارهم وبدأ في التنفيذ والكتابة بعد أن رسم لهم المنهج وكانت اللجنة لهذا العمل على أتم الاستعداد من اليقظة والانتباه لكلّ ما جل ودق وتسير على القواعد والأسس التي تم الاتفاق عليها بين الخليفة والصحابة رضى الله عنهم جميعاً ، وأهم هذه القواعد التي صارت عليها اللجنة ما يلي :

١ ـ ألا يكتبوا في هذه المصاحف إلاَّ ما تحققوا أنه قرآن نقل بعدد التواتر عن رسول الله ﷺ دون ما نقله الآحاد ممن كانوا من الثقة والحفظ فإنَّ الرجل الواحد يجوز أن يسمع من النبى ﷺ تفسيراً بكلمة قرآنية أو يسمع منه ذكراً على هيئة خاصة فيعتقد أنه قرآن أو يكون قد سمع قرآناً ثمَّ نسخ وهو غائب ولم يعلم بنسخه فلهذا كله كانوا لا يكتفوا بنقل الآحاد في كتابة القرآن بل لابد من وجود التواتر .

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن ص ١١٠ .

(٢) اعجاز القرآن ص ٢١ .

٢ ـ ألاَّ يكتب المصحف إلاَّ ما استمر متلواً طول حياة الرسول ﷺ دون ما نسخت تلاوته بتوقيف منه في العرضة الأخيرة فإنَّ ما نسخت تلاوته ليس بقرآن وإن بقي حكمه(١) ، ولهذا لم يكتبوا : ﴿ فامضوا إلى ذكر الله ﴾ بدل فاسعوا ، ولم يكتبوا : ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً ﴾ بزيادة كلمة صالحة .. إلى غير ذلك ، وكل هذا كان محل عناية وتثبت في الجمع الأول ولكن غرض عثمان لم يكن للتثبت من قرآنية القرآن آية آية وإنَّما للتثبت من كيفية القراءة بها ، وفرق كبير بين قرآنية الآية والقراءة التي تُقرأ بها الآية(٢) .

٣ ـ أن يكتب القرآن كله في المصحف مرتب الآيات في سورها على وفق ما وفقهم عليه ﷺ ومرتب السور على ما نشاهده اليوم في المصاحف وهذا إما بتوقيف وإما باجتهاد وإما بهما معاً على خلاف في ذلك بين العلماء .

٤ ـ أن يكتبوا عدّة مصاحف لكي يتمكن من إرسالها إلى أقطار بلاد المسلمين للرجوع إليها ، وبهذا يقضي على الخلاف القائم بين الأمصار والذي ينشأ نتيجة الاختلاف في القراءات .

٥ ـ أن تكتب تلك المصاحف بطريقة تجعلها محتملة لجميع القراءات المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ وتجريد هذه المصاحف من النقط والشكل وبعض أحرف اللّين فتكون دلالة الخط الواحد على اللفظين أو الألفاظ كدلالة المشترك اللفظي على المعنيين أو المعاني التي وضع لها مثل قوله : « فتثبتوا » فإنَّها تصلح أن تقرأ « فتبينوا » وذلك في موضعيها من سورة النساء وسورة الحجرات فعند خلوها من النقط تصلح أن تُقرأ بالطريقتين معاً وأيضاً كلمة « ننشزها » يصح أن تُقرأ ننشرها بالراء ، وكذلك كلمة

(١) العبادي ـ جمع القرآن ص١١٣ .

(٢) سيأتي بيان ذلك في مبحث الفرق بين جمع القرآن في عهد أبي بكر وعهد عثمان .

« أف » فقد ورد أنَّها تُقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ والَّذين هُم لأمنتهم وعهدهم رَاعُون ﴾ فهي مرسومة بحذف الألف فيمكن أن يقرأ بإثبات الأولى دون الثانية على صيغة الأفراد وهي قراءة ابن كثير ويمكن أن يقرأ بإثباتهما معاً على صيغة الجمع وهي قراءة الباقين فإن لم يمكن جمع القراءات المتواترة في رسم واحد بعد التجريد السابق لاختلاف هذه القراءات بالزيادة والنقص كتب الرسمان المختلفان ووزعا على المصاحف فيكتب أحدهما في بعضها والآخر في البعض الآخر وذلك كقوله تعالى : ﴿ ووصى ﴾ فقد كتب في مصاحف أهل المدينة والشام وأوصى بزيادة الألف ، وهكذا(١) .

وصفوة القول أنَّ القراءات التي يصلح لها رسم واحد مجرد من النقط والشكل وبعض أحرف اللين ونحوها تجعل في المصاحف على رسم واحد والقراءات التي لا يصلح لها إلاَّ رسمات توزع على المصاحف بكتابة أحدهما بعضها والآخر بباقيها وبهذا التوزيع تصير المصاحف صالحة للقراءات المتواترة التي لا يصلح لها رسم واحد وإنما لم يكتبوا الرسمين في مصحفواحد لأنهم لو كرروهما في الأصل لتوهم أنَّ اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة وليس كذلك بل هما قراءتان نزل اللفظ في إحداهما بوجه وفي الثانية بوجه آخر من غير تكرار في واحدة منهما ولو كتبوا أحد الرسمين في الأصل والآخر في الحاشية لتوهم أنَّ الثاني تقميع للأول ، ولهذا كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسمين أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية .

٦ ـ والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصحف وكتابته أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته وبكافة حروفه التي نزل عليها فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على

(١) انظر في ذلك الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٢٥٨ ، والعبادي ـ جمع القرآن ص١١٥ .

وجوهه كلها حتى لا يُقال أنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته أو منعوا أحداً من القراءة بأى حرف شاذ على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبى ﷺ ورسول الله يقول : « فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا »(١) .

٧ ـ ويذكر أبو عمرو الدّاني سبب اختلاف مرسوم المصاحف فيقول : (فإن سأل سائل عن السبب الموجب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف قلت السبب في ذلك عندنا أنَّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه لما جمع القرآن في المصاحف ونسخها على صورة واحدة وآثر في رسمها لغة قريش دون غيرها مما لا يصح ولا يثبت نظراً للأمة واحتياطاً على أهل الملّة وثبت عنده أنَّ هذه الحروف من عند الله عزَّ وجلَّ ، كذلك منزله ، ومن رسول الله ﷺ مسموعة وعلم أنَّ جمعها في مصحف واحد على تلك الحال غير ممكن إلاَّ بإعادة الكلمة مرتين وفي رسم ذلك كذلك من التخليط والتعبير للمرسوم ما لا خفاء فيه ففرقها في المصاحف لذلك فجاءت مثبتة في بعضها وممزقة في بعضها لكى تحفظها الأمة كما نزلت من عند الله عزَّ وجلَّ وعلىَ ما سمعت من رسول الله ﷺ فهذا سبب اختلاف مرسومها في مصاحف أهل الأمصار(٢) .

٨ ـ أن يكتبوا المصاحف بلسان قريش عند اختلافهم كما أشار عليهم بذلك الخليفة وذلك فيما رواه البخاري : (وقال عثمان للرهط القريشين الثلاثة(٣) إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنَّما نزل بلسانهم)(٤) .

ففعلوا حتى إذا انتهوا من نسخ الصحف في المصاحف قام عثمان برد

---

(١) انظر حديث نزل القرآن على سبعة أحرف .

(٢) المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص١٣٨ .

(٣) وهم سعيد بن العاص وكان أموياً وعبد الله بن الزبير وكان أسدياً وعبد الرحمن بن الحارث وكان مخزومياً من بطون قريش .

(٤) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٣ .

الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وقد أعطى عثمان هذه اللجنة كل العناية والاهتمام فكان لا يغفل عن متابعتها طرفة عين لعلمه بل يقينه بأهمية ما تقوم به ، فهي تكتب دستور المسلمين الأول ومنبع الشريعة الفياض إنه كلام رب العالمين الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين .

ولهذا كانوا يرجعون إليه إذا اختلفوا في كتابة لفظ أو كلمة فكان يشير عليهم بالصواب وما يجب أن يفعلوه ومن ذلك عندما اختلفوا في كتابة التابوت أو التابوه ـ فقال القرشيون التابوت فإنه نزل بلسان قريش(١) .

وأخرج ابن أبي داود عن كثير ابن أفلح قال : وكان عثمان يتعاهدهم فكانوا إذا تداءوا في شيء أخروه(٢) .

ومن أهم أخبار كتابة المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه ما ذكره الحسين ابن فارس بإسناده عن (هانئ) قال : كنت عند عثمان بن عفان رضي الله عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها (لم يتسن) و (فأمهل الكافرين) و (لا تبديل للخلق) قال : فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب (لخلق الله) ومحا (فامهل) وكتب (فتمهل) وكتب « لم يتسنه) الحق فيها هاء(٣) .

* * *

(١) أبو داود السجستاني ـ المصاحف ص١٩ .
(٢) المصاحف ص٢٣ .
(٣) المصدر السابق ص٩ .

معنى نزول القرآن بلسان قريش

سبق أن ذكرنا أنَّ عثمان رضي الله عنه بعد اختياره للجنة التي ستقوم بنسخ الصحف البكرية في مصحف واحد أمرهم إذا اختلفوا في شيء من القرآن أن يكتبوه بلسان قريش ، ولهذا الأمر علّة وحكمة حاول العلماء جاهدين إظهارها وبيان المراد منها الأمر حتى يفهم على الوجه الصحيح فقال القاضي أبو بكر الباقلاني معنى قول عثمان نزل القرآن بلسان قريش أى معظمه وأنه لم تقم دلالة قاطعة على أنَّ جميعه بلسان قريش فإنَّ ظاهر قوله تعالى : ﴿ إنَّا جعلناه قرآناً عربياً ﴾ .

إنَّه نزل بجميع ألسنة العرب ومن زعم أنه أراد مصر دون ربيعة أو هما دون اليمن أو قريشاً دون غيرهم فعليه البيان لأنَّ اسم العرب يتناول الجميع تناولاً واحداً ولو ساغت هذه الدعوى لساغ الآخر أن يقول نزل بلسان بني هاشم مثلاً لأنهم أقرب نسباً إلى النبي ﷺ من سائر قريش(١) .

وقال أبو شامة : يحتمل أن يكون قوله نزل بلسان قريش أى ابتداء نزوله ثمَّ أبيح أن يقرأ بلغة غيرهم ، فالمعلوم أنَّ القرآن قد حوى كثيراً من لغات العرب ففيه أربعين لغة عربية وهى قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس-غيلان وجرهم واليمن وأزدشنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطيء وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة(٢) .

ولكن هذه اللغات كلها تمثلت في قريش باعتبار أنَّ لغة قريش كانت

---

(١) ابن حجر العسقلاني-فتح الباري ١٩ / ١٠ .

(٢) السيوطي-الإتقان ١ / ٢١٤ .

المتزعمة لها والمهيمنة عليها والآخذة منها ما تشاء ثمَّ يأخذ الجميع عنها حتى صحَّ أن يعتبر لسان قريش هو اللسان العربي العام وبه نزل القرآن .

فالمصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة كما نسخت منهم الصحف الأولى وإنما أراد عثمان بقوله اكتبوه بلسان قريش يريد الاختلاف في الكتابة والرسم لا في الألفاظ واللغات والحروف أو يريد أن لغة قريش متوافر فيها التواتر أكثر من غيرها فليأخذوا بها عند الاختلاف لهذا الغرض وحده وهو التواتر الذي شرطوه في دستور كتابتهم وجمعهم .

وصفوة القول : أنَّ الوجوه السبعة التي نزلت في القرآن الكريم واقعة كلها في لغة قريش وذلك أنهم خبروا لغات العرب جميعاً وتداولوها وانتهت إليها أفصح اللغات فكان هذا من أسباب زعامتها ، كما أنَّ تحكيم التواتر هو الأساس الأول فيما يكتب وإن كان من غير لغة قريش وما لم يتواتر لا يكتب وإن كان من لغة قريش ، وعثمان كان يعلم أنَّ الثابت المتواتر في هذه الكلمات هو قراءة القريشيين فذكر لهم هذه القاعدة .

عدد المصاحف المنسوخة وأماكن تواجدها

مما لا شكّ فيه أنَّ اللجنة التي أنيط بها مهمة القيام بالكتابة والتدوين من صحف أبي بكر إلى المصاحف أخرى قد لقيت من المشقة والتعب ما لا يقل في الأجر والثواب عن الجهاد في سبيل الله وتستطيع أن تقف على حجم هذه الجهود التي بذلها الصحابة عن طيب خاطر ورضاء نفس إذا عرفنا قدرة الأشياء التي كان يكتب عليها خلال تلك الفترة(١) .

وقد تضاعفت هذه الجهود لديهم عندما أمر عثمان بن عفان بنسخ

---

(١) انظر الفصل الرابع المبحث الثالث .

عدد من المصاحف يتراوح ما بين ستة أو سبعة مصاحف ليرسل إلى الأقاليم المختلفة ولاسيما في المناطق التي نشبت بها الفتنة وكثر فيها التنازع والاختلاف ، إذ إنَّ الهدف الأول من وراء النسخ والتدوين هو جمع المسلمين على قراءة واحدة قبل أن تتسع هوّة الخلاف بينهم بسبب الاختلاف في القراءة ، وقد ينتج عن هذا الخلاف عواقب وخيمة تؤثر على مستقبل الإسلام وأهله ، ومن هنا سارع الخليفة بإرسال الرسل بالمصاحف إلى المدن المختلفة وأوصاهم بقراءتها عليهم وترك ما عداها من القراءات فبعث إلى أهل المدينة ومكة والشام والكوفة والبصرة واليمن والبحرين كل منها بنسخة من المصحف العثماني .

وقد اختلف العلماء في عدد المصاحف التي أرسل بهذا الخليفة إلى الآفاق ، فقيل أنها أربعة وهو الذي عليه أكثر العلماء وقد صرّح بذلك أبو عمر وعثمان الداني بقوله «وأكثر العلماء على أنَّ عثمان لما كتب المصاحف جعلها أربع نسخ وبعث إلى كل ناحية واحدة الكوفة والبصرة والشام وترك واحداً عنده ، وقيل إنه جعله سبع نسخ وزاد إلى مكة وإلى اليمن وإلى البحرين ، والأول أصح وعليه الأئمة(١) .

وقيل أنَّ عددها خمسة وهو المشهور(٢) .

وصوّب ابن عامر أنها ستة .. المكي والشامي والبصري والكوفي والمدني العام الذي سيره عثمان رضي الله عنه من محل نسخه إلى مقره والمدني الخاص به الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام(٣) .

وقال ابن أبي داود سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتبت ستة مصاحف لما كتب عثمان المصاحف حين جمع القرآن كتب سبعة مصاحف

---

(١) المقنع في رسم المصاحف الأمصار ص٤٢ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٤ ، والسيوطي ـ الإتقان ١ / ١١٣ .

(٣) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٤٠٣ .

وبعث واحداً إلى مكة وآخر إلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً(١) .

وقال ابن الجزري أثناء حديثه عن جمع القرآن الكريم : « فكتب عثمان عدَّة مصاحف فوجه بمصحف إلى البصرة ومصحف إلى الكوفة ومصحف إلى الشام وترك مصحفاً بالمدينة وأمسك لنفسه مصحف الذي يُقال له الإمام ووجه بمصحف إلى مكة وبمصحف إلى اليمن وبمصحفاً إلى البحرين فيكون العدد الثمانية »(٢) .

فالخلاف في عدد المصاحف التي تم نسخها على عهد عثمان قائم بين العلماء قديماً وحديثاً والروايات المنقولة عنهم ليس لها سند متصل ومن ثمَّ غير مقطوعة الدلالة في الحكم على العدد الذي تمَّ نسخه في عهد عثمان رضي الله عنه فالروايات المنقولة تصور لنا الاختلاف الواضح بين العلماء في تحديد العدد ومن ثمَّ تعددت الآراء .

وصوب صاحب مناهل العرفان رأى من قال بأنها ستة(٣) وتبعه في ذلك العبادي بقوله : والظاهر أنها ستة ، الأربعة المتفق عليها ومصحف مكة لِلنقل عنه ومصحف عثمان الخاص لما سبق من الاستدلال عليه ، أما مصحف اليمن ومصحف البحرين ومصحف مصر فإنه لم يَدل على وجودها أثر متصل ولا نقل الأئمة عنها شيئاً .

إذاً ففي وجودها شك واستبعاد اخلائها من المصاحف فيه نظر لأنَّ ماصنعه عثمان يعد نموذجاً يجب على المسلمين أن يقتدوا به فينقلوا من المصاحف المعتمدة مصاحف لأنفسهم ويصححوا عليها مصاحفهم(٤) .

---

(١) المصاحف ص٣٤ .

(٢) النشر في القراءات العشر ١ / ٩ .

(٣) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٤٠٣ .

(٤) جمع القرآن ص١٢٥ .

والذي نميل إليه وتطمئن إليه النفس أنَّ عثمان أرسل إلى كل الأقطار الإسلامية بنسخة من المصحف العثماني الذي تمَّ تدوينه لكي يتمكن من القضاء على الفتنة التي كادت أن تقع بين المسلمين بسبب الاختلاف في وجوه القراءة وجمع الناس على قراءة واحدة وفي وقتٍ واحد قبل أن يتفاقم الأمر وتتسع الخلافات ومن الطبيعي أنه أرسل إلى كل الأقطار التابعة للمسلمين إذ ليس من المعقول أن يخص قطراً دون قطر وأقرب الاحتمالات إلى الصحة أنه بعث إلى كبرى الولايات الاسلامية بالمصاحف المعتمدة التي لا تتجاوز خمسة على أصح الأقوال وعلى المسلمين بعد ذلك أن يأخذوا هذه المصاحف كنماذج للسير عليها والاقتداء بها ولهم أن ينقلوا منها ما شاءوا .

وعلى كل حال فإن المفهوم أنَّ عثمان استنسخ عدداً من المصاحف يفي بحاجة الأمة وجمع كلمتها وإطفاء فتنتها ولا يتعلق بتعيين العدد كبير أهمية .

ثمَّ أخذ عثمان يختار حفاظاً يثق بهم ليرسلهم إلى الأقطار الإسلامية فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب فبعث زيد بن ثابت مع مصحف أهل المدينة وعبد الله بن السائب مع مصحف مكة والمغيرة بن شهاب مع الشامي وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن عبد القيس مع البصري ثمَّ نقل التابعون عن الصحابة فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم تلقيا عن الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ فقاموا في ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ ثمَّ تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم واجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم واعتماد روايتهم ، ومن هنا نُسبت القراءة إليهم ولم يختلف عليهم فيها اثنان ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم(١) .

---

(١) ابن الجزري ـ النشر ص٩ .

أماكن وجودها

أما عن وجود المصاحف العثمانية القديمة فيصرح ابن كثير أنَّ المصاحف العثمانية الأئمة وأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية(١) ثمَّ نقل إلى دمشق في حدود ثماني عشرة وخمسمائة ، وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم في رق أظنه من جلود الابل(٢) ولا يعلم على اليقين تعيين الأماكن التي توجد بها المصاحف العثمانية بل ولا بقائها في زماننا ، هذا وقد وجدت بعض المعلومات المبعثرة في بطون الكتب التي تشير إلى أماكن هذه المصاحف دون الجزم بوجود النسخة الأولى التي كُتبت بيد الصحابة رضى الله عنهم .

ومن ذلك ما ذكره ابن الجزري أنه رأى في زمانه مصحف أهل الشام ومصحف مصر .

أما مصحف الكوفة فقد أخرج ابن أبي داود في كتابه المصاحف من طريق حمزة الزيات أنه قال : « كتب عثمان أربعة مصاحف فبعث بمصحف منها إلى الكوفة فوضع عند رجل من مراد فبقي حتى كتبت مصحفي عليه .

أما مصحف المدينة المنورة فقد كان محفوظاً بالروضة المعطرة على مدى القرون إلى الحرب العالمية سنة ١٩١٤ ثمَّ نقل إلى الأستانة ولعلّه أعيد إليها بعد أن وضعت الحرب أوزارها(٣) .

وسُئل الإمام مالك عن مصحف عثمان رضي الله عنه فقال ذهب(٤) .

---

(١) طبرية ، بلدة مطلة على بحيرة طبرية وهى من أعمال الأردن في طرف الغور .

(٢) فضائل القرآن ص٥٠ .

(٣) العبادي ـ جمع القرآن ص١٢٧ .

(٤) ابن أبي داود ـ المصاحف ص١٧ .

أما المصاحف الموجودة الآن بخزانة الآثار فيُقال أنَّها مصاحف عثمانية ومنها مُصحف بالمسجد الحسيني بخزانة الآثار ، ويذكر أحد الباحثين أنه اطلع على هذا المصحف وعلى مصحف آخر يُقال أنه كتبه الإمام عليّ ابن أبي طالب فوجدهما قد كُتبا على جلد مصقول مثل الورق بخط على القاعدة القديمة إلاَّ أنَّ المصحف المنسوب لعثمان بخط مجوف واسع جداً ورسمه يوافق رسم المصاحف المدني والشامي حيث رسم فيه من يرتد من سورة المائدة بفك الإدغام ، ومما يبعد أنه عثماني وجود العلامات بالنقش بين السور وعلى الأعشار وذلك لم يكن بالمصاحف العثمانية والذي يغلب على الظّن أنه منقول منها وعلى رسم بعضها وطول هذا المصحف سبعون سم وعرضه خمسون سم وسمكه ستون سم والمصحف المنسوب لعليّ رضي الله عنه بخط مجوف أقل من الأول وكثير رسمه يوافق رسم غير المدني والشامي من المصاحف العثمانية حيث رسم فيه من يرتد من السورة المذكورة بغير فك الإدغام (أى دال واحدة) وقد وجد بآخره ثلاثة أسطر لم يقرأ إلاَّ الأول منه وهو لفظ كتبه عليّ بن أبي طالب طوله ثلاثون سم وعرضه عشرون وسمكه عشرون ويغلب على الظّن أنه بخط عليّ بن أبي طالب أو كتب بأمر في الكوفة ولكن لا يمكن القطع بذلك(١) أو يكون قد أمر بكتابته في الكوفة(٢) .

وصرّح الزرقاني بأنَّ المصاحف الأثرية التي تحتفظ بها خزائن الكتب والآثار في مصر ويقال عنها مصاحف عثمانية موضوع شك في صحة نسبتها إلى عثمان رضي الله عنه لأنَّ بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور ولبيان أعشار القرآن ، ومعلوم أنَّ المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقط والشكل أيضاً(٣) .

---

(١) العبادي ـ جمع القرآن ص١٢٩ .

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٤٠٥ .

(٣) مناهل العرفان ١ / ٤٠٤ .

وأمَّا المصحف الذي أرسله الملك الظاهر بيبرس إلى ملك المغول في الشام في ولجا وما والاها أثناء سعيه الموفق في إرشادهم إلى الإسلام فليس هو المصحف العثماني رغم ما شهر في البلاد ، وإن كان من المصاحف القديمة المنسوخة في عهد الصحابة لأنَّ رسمه يخالف رسم عثمان الخاص في بعض الكلمات كما حققه الشهاب المرجاني في (وفيات الأسلاف وتحيات الأخلاف) بمعارضة رسمه برسم مصحف عثمان الخاص المدون في كتب الرسم كالرائية وغيرها ، ويبدو أنَّ مصحف بيبرس هو المصحف الذي كان محفوظاً بجامع عبيد الله الأحرار السمرقندي بسمرقند(١) بعد انقراض دولة المغول الشمالية وحينما استولى الروس على سمرقند في القرن المنصرم نقلوا المصحف إلى خزانة قيصر روسيا ولم يزل محفوظاً بها إلى انقراض دولتهم ، ويُقال إنَّه أُعيد إلى الجامع المذكور بسمرقند قبل خمسة عشرة سنة بعد زوال دولتهم لكن جهلة المسلمين هناك أخذوا أوراقاً كثيرة منه من مواضع متفرقة خفية بقصد التبرُّك فقضوا بذلك على المصحف الأثري العظيم القدر(٢) .

ويبدو أنَّ تقادم العهد للمصاحف العثمانية جعل بعض الماكرين والخبثاء يجترئون على تلطيخ بعض المصاحف القديمة بالدم ليظن أنَّه الذي كان بيد عثمان رضي الله عنه حينما قتل وكم من مصاحف ملطخة بالدم في خزانات الكتب لا صلة لها بمصحف سيّدنا عثمان رضي الله عنه .

فعلى الرغم من وجود بعض المعلومات المتناثرة عن المصاحف العثمانية التي كانت بالمدينة والشام والعراق إلاَّ أنه لم ينقل ولم نعرف عن مصاحف اليمن أو البحرين أو مصر شيئاً مما يدل على عدم وجودها .

وجدير بالذكر أنَّ مئات بل ألوف من المصاحف قد نسخت على مثال

---

(١) سمرقند : أحد بلاد ما وراء النهر

(٢) العبادي ـ جمع القرآن ص ١٣٠ .

المصاحف العثمانية الأولى في كل عصر ومصر مع المحافظة على الرسم العثمائي ، بحيث لا يوجد فرق بين الأصل وبين ما نسخت منه وأجمعت الأمة على تلقي هذا بالقبول جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا بفضل الله(١) وحفظه لكتابه تحقيقاً لوعده القائل : ﴿ إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون ﴾ (سورة الحجر:٩) وقوله : ﴿ إنَّا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه ثمَّ إنَّا علينا بيانه ﴾ (سورة القيامة) .

شروط قبول القراءة الصحيحة

ذكر القراء شروطاً يجب توافرها في القراءة الصحيحة ومنهم ابن الجزري فقال : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصحَّ سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة »(٢) .

وقد نظمها ابن الجزري بقوله :

فكل من وافق وجه نحوي ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصحَّ إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت ... شذوذه ولو أنه في السبعة

ويتبين من كلامه أنَّ القراءة الصحيحة يجب أن يتوافر بها ثلاث شروط :

الأول : صحة السند فالقراءة يجب أن تستند إلى النقل السليم والرواية الصحيحة وإلى هذا ذهب كثير من العلماء كابن خالوية وأبو الحسن البغدادي وابن شنبوذ والإمام الكواشي وغيرهم .

---

(١) النشر في القراءات العشر ص٩ .

(٢) المصدر السابق .

الثاني : موافقة القراءة لرسم أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وذلك لأنَّ المصحف العثماني شهد إجماعاً من الصحابة رضى الله عنهم ومن ثمَّ يجب موافقة القراءة لرسم أحد المصاحف العثمانية ، فلو جاءت قراءة مخالفة للمصاحف العثمانية لكانت القراءة شاذة لمخالفتها الرسم المجمع عليه .

الثالث : موافقة القراءة للغة العربية ولو بوجه من الوجوه الشائعة في اللغة وقيل لو وافقت وجهاً غير شائع تصح .

تحريق عثمان للمصاحف
وإقرار الصحابة عليه

سبق وأن ذكرنا أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما همَّ بجمع القرآن ونسخه بعد توافر الأدلة عليه واقتناعه به فجمع الصحابة وفيهم أعلام الأمة والأئمة ليأخذ رأيهم وينتفع بمشورتهم فأقرُّوه عليه وهكذا كان شأنه في كل أعماله السياسية والإدارية .

فبعد أن أتم نسخ المصاحف من الصحف البكرية وانتهى من إرسالها إلى الآفاق مع المبعوثين أمر بعد ذلك بإعدام ما سوى هذه المصاحف من صحيفة أو مصحف أو غيرها مع الاحتفاظ بالصحف التي كان قد أخذها من السيدة حفصة فإنه قام بردها إليها وفاء بوعده .

وتتعدد الروايات وتختلف في الكيفية التي تم إعدام الصحف بها .. فرواية الإمام البخاري رضي الله عنه تصرح بأنه أمر مما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يخرق بالخاء المعجمة وللمروزي بالمهملة ورواه الأصيلي بالوجهين ، وفي رواية الإسماعيلي أن تمحى أو تحرق ، وفي رواية شعيب عن أبي داود والطبراني وغيرهما وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به قال فذلك زمان حرقت المصاحف بالعراق بالنار ، وفي رواية سويد بن عقلة عن عليّ قال : لا تقولوا لعثمان في

إحراق المصاحف الأخير ، وفي رواية نكير بن الأشج فأمر بجمع المصاحف فأحرقها ثمَّ بثَّ في الأجناد التي كتب ومن طريق مصعب بن سعد قال : أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك أو قال لم ينكر ذلك منهم أحد(١) .

وفي رواية أبي قلابة : فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الأمصار إنِّي قد صنعت كذا وكذا ومحوت ما عندي فامحوا ما عندكم(٢) والمحو أعم من أن يكون بالغسل أو بالتحريق وأكثر الروايات صريح في التحريق فهو الذي وقع ويحتمل وقوع كل منهما بحسب ما رأى من كان بيده شيء من ذلك(٣) .

وقد جزم عياض بأنهم غسلوها بالماء ثمَّ أحرقوها مبالغة في أذهابها .

وجملة الروايات الواردة بشأن إعدام الصحف التي تمَّ النقل منها تشير إشارة صريحة إلى التحريق وأنَّ الناس أقروه على فعله ولم ينكروا عليه ذلك واجتمعوا على المصاحف العثمانية لما عرفواه من شدّة ضبطها وأحكامها وجمعها للمتواتر .

وعن سويد بن نقلة قال : سمعت علياً رضي الله عنه يقول : يا أيها الناس لاتغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلاَّ خيراً في إحراق المصاحف فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلاَّ عن ملء منّا جميعاً(٤) .

وقد استجاب الصحابة لعثمان فحرقوا مصاحفهم واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان وأنه أبى أن يحرق بمصحفه رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة

---

(١) ابن أبي داود السجستاني ـ المصاحف ص١٢ .

(٢) الطبري ـ جامع البيان ١ / ٢١ .

(٣) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٤ .

(٤) أبو عمرو الدّاني ـ المقنع في رسم المصاحف ص١٥ ، وأبو داود السجستاني ـ المصاحف ص١٧ .

حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية واجتماع الأمة عليها وتوحيد الكلمة بها(١) .

ولن يقدح في عمل عثمان رضي الله عنه أنه أحرق المصحف والصحف المخالفة للمصاحف العثمانية لأنَّ غرضه كان واضحاً وهو جمع كلمة الأمة وقطع عرق النزاع الناشيء بين المسلمين بسبب الخلاف في وجوه القراءة .

رضي الله عن عثمان فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه وحافظ على القرآن وجمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة فهو لم يحرق إلاَّ ما يجب إحراقه ولهذا لم ينكر عليه أحد ذلك بل رضوه وعدوه من مناقبه حتى قال عليّ : لو وليت ما ولي عثمان لعملت بالمصحف ما عمل(٢) .

وروى أبو داود من طريق عمران بن جدير قال : لولا أنَّ عثمان كتب القرآن لألفيت الناس يقرءون الشعر(٣) .

واستدلَّ العلماء من فعل عثمان هذا على جواز تحريق الكتب التي فيها اسم الله بالنار وأنَّ ذلك إكرام لها وصون عن وطئها بالاقدام ، وقد أخرج عبد الرازق من طريق طاووس أنه كان يحرق الرسائل التي فيها البسملة إذا اجتمعت(٤) .

ومدح الطبري صنيع عثمان بقوله : « علي أنَّ إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن عثمان رحمة الله عليه جمع المسلمين نظراً منه لهم واشفاقاً منه عليهم ورأفة منه بهم حذار الردة من بعضهم بعد الإسلام والدخول في الكفر بعد الإيمان إذ ظهر من بعضهم بمحضره وفي عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن مع سماع أصحاب

---

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٢٦١ ، القرطبي ـ تفسير القرطبي ١ / ٤٥ .

(٢) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٤٠ .

(٣) المصاحف ص١٣ .

(٤) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٤ .

رسول الله ﷺ من رسول الله ﷺ النهي عن التكذيب بشيء منها وإخباره إيَّاهم أنَّ المراء فيها كفر فحملهم رحمة الله عليه إذ رأى ذلك في عصره وبحداثة عهدهم بنزول القرآن وفراق رسول الله ﷺ إيَّاهم بما أمن عليهم معه عظيم البلاء في الدين من تلاوة القرآن على حرف واحد فجمعهم على مصحف واحد وحرَّق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه وعزم على كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه أن يحرقه فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ورأت أنَّ فيما فعل من ذلك الرشد والهداية فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له ونظراً منها لا نفسها ولمن بعدها من سائر أهل ملّتها « حتى درست من الأمة معرفتها وتحققت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود منها صحتها وصحة شيء منها ولكن نظراً منها لا نفسها ولسائر أهل دينها فلا قراءة اليوم للمسلمين إلاَّ بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية »(١) .

* * *

(١) جامع البيان ١ / ٢٢ .

إقرار الصحابة على فعل عثمان

يُعد جمع القرآن الكريم ونسخه في عهد عثمان من الأعمال الجليلة التي قدمها للإسلام والمسلمين فبهذا العمل جمع كلمة الأمة وأغلق باب الفتنة ورد الخلاف الذي كاد أن يقع بين المسلمين بسبب الاختلاف في القراءة واللجات مجمعه المسلمين على مصحف واحد حسنته العظمى وخصلته الكبرى ، فهو يد القدر التي حفظ الله بها كتابه على يديه .

وقد شكر له هذا العمل كل الصحابة (رضى الله عنهم) واجتمعوا على المصاحف العثمانية وأعدموا ما عندهم من صحف أو مصاحف وسمعوا له وأطاعوا بكل الرضا والقبول فيما عدا ما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه عارض ذلك وكان يقيم بالكوفة فأمر الناس بالتمسك بمصحفه وقال : من استطاع منكم أن يغل مصحفاً فليغلل فإنَّه من غلَّ يأت بما غلَّ يوم القيامة ونعم الغل المصحف يأتي به أحدكم يوم القيامة .

ثمَّ قال عبد الله : لقد قرأت من فيّ رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد صبي أفأترك ما أخذت من فيّ رسول الله ﷺ(١) .

وفي رواية تأمروني أن أقرأ قراءة زيد ولقد قرأت من فيّ رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة ولزيد ذؤابتان يلعب بين الصبيان(٢) .

وفي رواية : وما من كتاب الله آية إلاَّ أعلم حيث نزلت وفيم نزلت ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لرحلت إليه(٣) .

وفي رواية أخرى من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنَّ عبد الله ابن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف وقال : يا معشر المسلمين أعزل

---

(١) أبو داود السجستاني ـ المصاحف ص١٥ .

(٢) الترمذي ـ سنن الترمذي جـ ١١ / ٢٦٠ ـ دار الفكر .

(٣) أبو داود السجستاني ـ المصاحف ص١٥ .

عن نسخ المصاحف ويتولاها رجل والله لقد أسلمت وأنه لفي صلب أبيه كافراً(١) .

وظاهر هذه الروايات تبرز عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صورة المنكر لعمل عثمان والمعترض عليه ، ولهذا اقتصر على مصحفه الذي كتبه بيده وسمعه من فم الرسول ﷺ ، بل إنه دعا الناس في الكوفة إلى أن يغلوا مصاحفهم التي معهم ويتمسكوا بها .

لكن الحقيقة تخالف ذلك تماماً ففعل ابن مسعود لا يعد إنكاراً بقدر ما هو إقرار وليس فعله اعتراض بقدر ما هو أمنية ووداد ، فليس بالرجل المخالف للجماعة ولا المعترض على ولي الأمر وليس هو بالذي يضع نفسه موضع العيب عليه ، ولكن الأمر كله لا يخرج عن كونه أن ابن مسعود تعصب لقراءته لثقته بنفسه إذ كان يرى في نفسه الأهلية للقيام بهذا العمل الذي عزم عثمان عليه فهو أولى من زيد لأنه أكبر سناً وأعلم بالناسخ والمنسوخ وكان من أكثر الصحابة ملازمة للرسول ﷺ وسمع من النبي ﷺ وأخذ عنه بضعاً وسبعون سورة وقال فيه رسول الله ﷺ : « خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد فبدأ به ومعاذ بن جبل رضي الله عنه وابن كعب وسالم مولى أبي حذيفة » وكان يقرأ القرآن غضاً كما نزل وكان أعلم الناس بوقت نزول الآيات متى نزلت وفيمن نزلت وكان يود لو أنَّ كتابة المصحف أوكلت إليه أو يكون ضمن من يقوم بالكتابة والنسخ كما كان يود أيضاً لو بقي مصحفه الذي كتبه بيده قلما فاته ذلك كله شق عليه صرفه عن الكتابة فقال ما قال بدافع الضيق الذي سيطر عليه .

لقد جاء عمل عثمان رضي الله عنه على خلاف ما كان يوده ابن مسعود في الحالتين .

أمَّا في اختيار عثمان زيد بن ثابت لكتابة المصحف الموحد فلأنَّ أبا بكر وعمر اختاراه قبل ذلك لهذا العمل في خلافة أبي بكر بل إنَّ

---

(١) المصدر السابق والقرطبي ـ تفسير القرطبي ١ / ٤٤ .

أبا بكر وعمر اختارا زيد بن ثابت في البداية لأنه هو الذي حفظ العرضة الأخيرة لكتاب الله على رسول الله ﷺ قبل وفاته فكان عثمان على حق وهو يعلم كما يعلم سائر الصحاب مكانة ابن مسعود رضي الله عنه وعلمه وصدق إيمانه ثمَّ أنَّ عثمان كان على حق أيضاً في غسل المصاحف الأخرى كلها ومنها مصحف ابن مسعود لأنه توحيد كتابة المصحف على أكمل ما كان في استطاعة البشر ، وهو من أعظم أعمال عثمان بإجماع الصحابة وكان جمهور الصحابة في كل ذلك مع عثمان على ابن سعود رضي الله عنه .

ويقول أبو بكر الأنباري بصدد كلامه عن موقف ابن مسعود من المصاحف المنسوخة على عهد عثمان (لم يكن الاختيار لزيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ، وعبد الله أفضل من زيد وأقدم في الإسلام وأبصر سوابق وأعظم فضائل إلا لأنَّ زيد كان أحفظ للقرآن من عبد الله إذ وعاه كلّه ورسول الله ﷺ حي والذي حفظ منه عبد الله في حياة الرسول ﷺ نيف وسبعون سورة ثمَّ تعلم الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ والذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حي أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار ولا ينبغي يظن جاهل أنَّ في هذا طعناً على عبد الله بن مسعود لأنَّ زيداً إن كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجباً لتقدمه عليه لأنَّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن وله هو خيراً منهما ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب ، قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشرع نتيجة الغضب ولا يعمل به ولا يؤخذ به ولا يشك في أنه رضي الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله وبقي بعد موافقتهم وترك الخلاف لهم)(١) .

ويذهب بعض الباحثين أو المؤخين إلى القول بأنَّ ما روى في ذلك عن أبن

---

(١) القرطبي ـ تفسير القرطبي ١ / ٤٦ .

مسعود ضعيف الإسناد وأنَّ الروايات الضعيفة التي تتضمن ذلك تثبت أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه رجع إلى ما اتفق عليه الصحابة (رضى الله عنهم) في جمع القرآن وأنه قام في الناس وأعلن ذلك وأمرهم بالرجوع إلى جماعة المسلمين في ذلك وقال : إنَّ الله لا ينتزع العلم انتزاعاً ولكن ينتزعه بذهاب العلماء وإنَّ الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة فجامعوهم على ما اجتمعوا عليه فإنَّ الحق فيما اجتمعوا عليه وكتب بذلك إلى عثمان(١) .

وصرّح ابن كثير وغيره بأنَّ ابن مسعود عاد إلى الوفاق والتأييد لعمل عثمان وانضم إلى جماعتهم حفاظاً على وحدة الأمة(٢) .

والعذر لعثمان في ذلك أنه قام بالعمل في المدينة وعبد الله بالكوفة ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر وأيضاً فإنَّ عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفاً واحداً وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كاتب الوحى فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره(٣) .

أمَّا ما زعمه الروافض ومن سار على نهجهم من أنَّ عثمان ضرب ابن مسعود حتى مات بعد أن منعه عطاءه فهذا كذب وافتراء باتفاق العلماء يقول إبو بكر ابن العربي وأما ضربه لابن مسعود ومنعه عطاءه فزور(٤) .

فلا وجه للطعن وبث الأغاليط في هذا الميدان فقد كان كل منهما يعرف للآخر قدره ومنزلته ، فابن مسعود شديد الالتزام بطاعة إمامه الذي بايعه عن رضا وأقتناع وهو يقول : (بايعنا خيرنا ولم نأل) كما كان الخليفة يعرف له قدره كذلك فعندما تولّى عثمان الخلافة كان ابن

---

(١) علي الصلابي ـ عثمان بن عفان شخصيته وعصره ص٢٥٤ .

(٢) البداية والنهاية ٧/ ١٦٥ .

(٣) ابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٣ .

(٤) العواصم من القواصم ص٦٣ .

مسعود والياً على أموال الكوفة من جهه عمر بن الخطاب وسعد بن ابي وقاص والياً على صلاتها وحربها فلمَّا اختلف ابن مسعود وسعد على قرض استقرضه سعد قام عثمان بعزل سعد وأبقى ابن مسعود والياً على الكوفة ، فالعلاقة بينهما علاقة مودة وصفاء وطاعة وولاء .

فلو أنَّ هناك ثمة اعتراض ظهر من ابن مسعود في بادىء الأمر فإنه يرجع في المقام الأوّل إلى تعصبه لرأيه وتمسكه بمصحفه الذي كان يفخر بأنه كتبه بين يدى رسول الله ﷺ ، هذا بالإضافة إلى عصبه من استبعاده من كتابة المصحف وهو يرى أنه من أولى الناس بذلك ، ولكن سرعان ما تبيّن له وجه الحق وعاد إلى الصواب ، وذلك فيما رواه ابن أبي داود من طريق عثمان بن حسان العامري عن فلفلة الجعفي قال : فزعت فيمن فزع إلى عبد الله في المصاحف فدخلنا عليه فقال رجل من القوم أنّا لم نأتك زائرين ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر فقال إنَّ القرآن أُنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف (أو حروف) وإنَّ الكتاب قبلكم كان ينزل أو نزل من باب واحد على حرف واحد معناهما واحد(١) .

ولعلَّ فزع هؤلاء القوم لظنهم أنَّ مصحف عثمان مخالف لما أخذوه عن ابن مسعود فأجابهم ابن مسعود بأنَّ القرآن نزل على سبعة أحرف فمن قرأ بأحدها جاز .

فرضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله ﷺ الذين أثنى الله عليهم في القرآن والتوراة والإنجيل وسيق لهم على لسان رسول الله ﷺ من الفضل ماليس لأحد بعدهم فرحمهم الله وهنأهم بما أثابهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الشهداء الصالحين أدوا إلينا سنن رسول الله وشاهدوه والوحي ينزل عليه تعلموا ما أراد رسول الله عاماً وخاصاً وعزماً وإرشاداً وعرفوا من

---

(١) المصاحف ص١٨ .

سننه ما عرفنا وجهلنا وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا(١) .

الرسم العثماني في المصاحف

بلغت عناية المسلمين بالقرآن مبلغاً عظيماً فتسابقوا إلى حفظه وتدوينه منذ نزوله على النبي ﷺ وحافظوا على شكله في خطه ورسمه بالوضع الذي كتب عليه في عهد عثمان بن عفان بحيث يوافق المكتوب المنطوق تمام الموافقة من غير زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير ، ولم يجز العلماء تغيير طريقة الرسم العثماني في أي حرف من حروفه على الرغم من تغير قواعد الإملاء وهذه دقة في الحفاظ على الدستور الإلهي ليظل على خطه ورسمه لا يمس استقلاله ولا يباح حماه على مر العصور والدهور .

ومن هنا كره بعض العلماء اتباع المصحف ، وسُئل الإمام مالك رضي الله عنه هل تكتب المصاحف على ما أخذته الناس من الهجاء ؟ فقال : لا إلاَّ على الكتبة الأولى ولا مخالف له من العلماء(٢) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك(٣) .

وقال الإمام البيهقي في شعب الإيمان (من كتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولايغير مما كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلباً ولساناً وأعظم أمانة فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم(٤) .

---

(١) السركي - شرح السير الكبير ١ / ٦٥ .

(٢) الزركشي - البرهان ص٣٧٨ ، والسيوطي - الإتقان ٢ / ٢٧٣ ، وأبو عمرو الداني - المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص١٣٥ .

(٣) الزركشي - البرهان ص٣٧٨ .

(٤) السيوطي - الإتقان ٢ / ٢٧٣ .

فأصحاب هذا الرأى يرون أنَّ رسم المصحف توقيفي لا يجوز مخالفته ، ولهذا ذكر ابن الجزري أنَّ من شروط صحة القراءة أن توافقَ المصاحف العثمانية ولو احتمالاً(١) .

وقد ردَّ على أصحاب هذا الرأى بأنَّ الله لم يفرض علينا رسماً بعينه بكلمات القرآن وليس في نصوصه ولا في مفهومه أنَّ رسم كلماته وضبطها لا يتم إلاَّ على طريقة معينة ولم يرد عن النبى ما يدل على ذلك أو يوجبه بل أشارت السنَّة إلى جواز رسم القرآن بأى وجه لأنَّ الرسول ﷺ كان يأمر بكتابته فور نزوله ولم يأمر الكتّاب بشكل معين في الكتابة .

بينما يرى البعض أنَّ رسم المصحف اصطلاحي وعليه فتجوز مخالفته إذ ليس في الكتاب ولا مفهومه أنَّ رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود ولا يجوز تجاوزه ولا في السنَّة ما يوجب ذلك ولافي إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلّت عليه القياسات الشرعية ، وفي رأينا أنَّ رسم المصحف بالخط الذي كتب به أمر ينبغي عدم مخالفته بل يجوز فيه الاتباع فما رسم في المصاحف العثمانية ينطوي على حكم خفية وأسرار بهية .

وممّا يؤيد هذا القول ما ذكره الزركشي بقوله : واعلم أنَّ الخط جرى على وجوه فيها ما زيد عليه على اللفظ ومنها مما نقص ومنها ما كتب على لفظه وذلك لحكم خفية وأسرار بهية فإنَّ اختلاف الأحرف في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها(١) .

وللمصحف العثماني قواعد في خطه ورسمه حصرت في ست قواعد وهي : الحذف والزيادة والهمز والبدل والفصل والوصل وما فيه قراءتان فقرىء على إحداهما .

---

(١) النشر في القراءات العشر ١ / ٩ .

(٢) البرهان ص ٣٨٠ .

وأما القراءات المختلفة المشهورة بزيادة لا يحتملها الرسم مثل : أوصى ووصى وتجري تحتها ومن تحتها وسيقولون الله ولله وما عملت أيديهم وعملته أيديهم فكتابته على نحو قراءته ، وكل ذلك وجد في مصاحف الإمام(١) .

هذا وللرسم العثماني مزايا جليلة وفوائد جمّة نذكر منها :

١ ـ الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان بحيث كتبت الكلمة بصورة تحتمل أكثر من قراءة مثل قوله تعالى : ﴿ إنَّ هذا لساحران ﴾ رسمت في المصحف العثماني بدون تنقيط ولا شكل ولاتشديد .

٢ ـ إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة .

٣ ـ الدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة أيد في قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأييد ﴾ كتبت بيائين ـ إشارة إلى تعظيم قوّة الله التي بنى بها السماء ، ومثل حذف الواو في الأفعال الآتية : يدعو ويمحو فإنها كتبت في المصحف هكذا ﴿ ويدع الإنسان دعاءه بالشر دعاءه بالخير ﴾ وقوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ بدون نقط ولا شكل .

٤ ـ الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله تعالى : ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ فإنه كتبت هكذا (وإيتائي ذي القربى) ، ومثل كتابة الصلاة والزكاة كتبت هكذا (الصلوة والزكوة) ـ للدلالة على أصل الحرف .

٥ ـ إفادة بعض اللغات الفصيحة مثل حذف الياء في يأت للدلالة على لغة هذيل(٢) .

وصفوة القول إنَّ المصحف العثماني له قواعد قواعد خطه ورسمه التي تطوي على حكم جليلة وأسرار مفيدة قد يخفى كثير منها على أولي

---

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٣٦٨ ، والقيعي ـ الأصلان في علوم القرآن ص١١٥ .

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٣٧٧ .

الألباب فضلاً عن العامة من الناس ، ومن هنا يجب فيه الاتباع على مذهب الجمهور .

الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما

سبق وأن تناولنا جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه فهو أوّل من جمع القرآن بين اللوحين ولذا فهو أعظم الناس أجراً في جمع المصاحف ، وتناولنا أيضاً مزايا هذه المصحف وأوجه الاختلاف بينها وبين مصاحف الصحابة وبعض صحفهم ، فلما كان عهد عثمان رضي الله عنه قام بجمع القرآن مرة أخرى مرتب الآيات والسور في مصاحف ووزعها على الأمصار لتكون هي المصدر المعتمد في القراءة إذا اختلف الناس وقد اعتمد في كتابه هذه المصاحف على صحف أبي بكر رضي الله عنه .

بيد أنَّ جمعه للقرآن ونسخه تميز عن جمعه في عهد الرسول ﷺ وعهد أبي بكر رضي الله عنه بعدّة مزايا ميّزته عن غيره ، ومن ثمَّ سنذكر هذه المزايا لكي تفرق بين خصائص كل جمع للقرآن .

وأهم مميزات الجمع العثماني ما يلي :

١ ـ أنَّ الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه كان الهدف منه الخوف من ذهاب شيء من القرآن بذهاب حملته الذين كانوا يستشهدون في كل ميدان من ميادين الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، والقرآن في هذه الفترة لم يكن مجموعاً في موضوع واحد فجمعه الصديق في مصاحف مرتبة الآيات والسور على ما وقفهم عليه النبي ﷺ .

أما الجمع في عهد عثمان فكان بسبب كثرة الخلاف بين المسلمين في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات بينهم فأدّى ذلك إلى النزاع فيما بينهم ، ولما كثر الخلاف خشي عثمان من تفاقم الأمر وانتشاره ممَّا يعود بالضرر على جماعة المسلمين ووحدتهم فقام بنسخ

تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور والآيات واقتصر فيه على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم(١) .

يقول القاضي أبي بكر : « لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك وآخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولاتأخير ولا تأويل أثبت مع تنزيل ولا منسوخاً تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشية الفساد والشبهة على من يأتي بعد »(٢) .

٢ ـ اشتمل الجمع العثماني على تأليف السور وترتيبها . إذ إنَّ ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين(٣) .

فكان رسول الله ﷺ يتلقى ترتيب الآيات ووضع الآية عقب الآية عن سيّدنا جبريل عليه السلام ، فعن عثمان بن أبي العاص قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخَّص ببصره ثمَّ صوّبه ثمَّ قال : أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى إلى آخرها(٤) .

فإنَّ القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذي هو في مصاحفنا الآن أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثمَّ كان ينزله مفرقاً عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة(٥) .

---

(١) السيوطي ـ الإتقان في علوم القرآن ١ / ٩٦ ، والزركشي ـ البرهان ص٢٣٥ ، وابن حجر العسقلاني ـ فتح الباري ١٩ / ٢٣ .

(٢) الزركشي ـ البرهان ص٢٣٥ .

(٣) السيوطي ـ الإتقان ١ / ٩٦ .

(٤) المصدر السابق ١ / ٩٧ .

(٥) الزركشي ـ البرهان في علوم القرآن ص٢٣٦ .

أما ترتيب القرآن من حيث سوره فيمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتّب سوره وأن يكون قد وكّل ذلك إلى الأمة بعده ولم ينزل ذلك بنفسه والثاني أقرب وجمهور العلماء على أنّ ترتيب سوره باجتهاد الصحابة يقول أبو الحسن بن فارس جمع القرآن على ضربين :

الأول : تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين فهذا الضرب هو الذي تولته الصحابة .

الثاني : أمّا الجمع الآخر هو جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه الرسول ﷺ(١) .

ولذلك جاء اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور فمنهم من رتبها على النزول وهو مصحف على كان أوله اقرأ ثمّ المدّثر ثمّ نون ثمّ المزمل ثمّ تبّت ثمّ التكوير وهكذا . بينما كان مصحف ابن مسعود أوله البقرة ثمّ النساء ثمّ آل عمران على اختلاف شديد(٢) .

فالقول بتأليف السور وترتيبها موكول إلى الأمة هو رأى جمهور العلماء ، يؤيد ذلك ما رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثاني وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال فقال عثمان كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً وكان قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنّها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا

(١) المصدر السابق .

(٢) السجستاني - المصاحف صـ٣٢

أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال(١) .

٣ ـ أنَّ الجمع العثماني تميّز باستنساخ عدد من المصاحف استعداداً لإرسالها إلى الآفاق ، أمَّا جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن فإنَّ الصحابة لم ينسخوا منه شيئاً لأنه لم يكن هناك ما يُدعو لذلك لعدم اختلاف ما جمعه أبو بكر لما عند الناس فجمع أبو بكر بمثابة سجل للقرآن يمكن الرجوع إليه إذا حدث أمر كما وقع لعثمان بن عفان ، فإنَّه لما اختلف المسلمون في وجوه القراءة حملهم على اتباع مصحفه وعلى قراءته بحرف واحد فقط(٢) .

٤ ـ أنَّ جمع القرآن في عهد عثمان اقتصر فيه على لغة قريش وذلك أنَّ القرآن نزل بلغتها أو بلسانها أو لهجتها ، وهذه المسألة أثارت خلافاً بين العلماء والأئمة من السلف والخلف وهي هل المصاحف العثمانية التي تمَّ كتابتها اشتملت على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كما روى عن رسول الله ﷺ وجاء في صحيح البخاري أم أنها اشتملت على حرف واحد وهو المراد من قول عثمان « اكتبوه بلسان قريش فإنَّما نزل بلسانهم » ؟ ولو فرض أنَّ مصاحف عثمان اقتصرت على حرف واحد أو لغة واحدة . فما الحكم في ترك الأحرف الستة التي قرأ بها الصحابة على رسول الله ﷺ .

هذه مسألة خلافية بين العلماء وسنذكر فيها الآراء المختلفة ووجهات النظر المتباينة وأصح الآراء فيها .

* * *

(١) السيوطي ـ الإتقان ١ / ٩٧ .

(٢) محمد طاهر الكردي ـ تاريخ القرآن ص٢٨ .

اشتمال المصحف على الأحرف السبع

ذهب جمهور العلماء من السلف والخلف إلى أنَّ هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام متضمنة لها لم تترك حرفاً منها(١) .

وذهب جماعة من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أنَّ جميع هذه الأحرف موجودة بالمصاحف العثمانية وقالوا إنه لا يجوز للأمة أن تهمل نقل شيء منها وإنَّ الصحابة أجمعوا على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التي كتبها أبو بكر وأجمعوا على ترك ما سوى ذلك ومعنى هذا أنَّ الصحف التي كانت عند أبي بكر جمعت الأحرف السبعة ونقلت منها المصاحف العثمانية بتلك الأحرف(٢) .

ثمَّ جاء الأمر من عثمان بالتأكيد على هذه الخاصية أثناء كتابتهم للمصحف فأمر أن تكتب تلك المصاحف بطريقة تجعلها محتملة لجميع القراءات المتواترة الثابتة عن النبي ﷺ وذلك بتجريدها من النقط والشكل وبعض أحرف اللين ونحوها فتكون دلالة الخط الواحد على اللفظين أو الألفاظ كدلالة المشترك اللفظي على المعنيين أو المعاني التي وضع لها مثل فتثبتوا في موضعيها من سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ﴾ ، وفي سورة الحجرات : ﴿ إن جاءكم فاسق بنباء فتبيّنوا ﴾ فإنَّها تصلح عند تجردها من النقط والشكل (فتثبتوا) وكذلك يُقال في قوله تعالى : ﴿ والّذين هُم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ ، وفي ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ﴾ ، فيجوز أن تقرأ بالإفراد والجمع في الآية الأولى وبزيادة الألف في الآية الثانية . وهكذا .

---

(١) ابن الجزري ـ النشر في القراءات العشر ١ / ٣١ .

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ١٦٨ .

ويرى ابن جرير الطبري أنَّ مصاحف عثمان لم تشتمل على الأحرف السبعة وإنَّما اشتملت على حرف واحد الذي اختاره لها إمامهم الناصح دون ما عداه ، فإن قال بعض من ضعفت معرفته وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءتها ، قيل إنَّ أمره إيَّاهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض وإنَّما كان أمر إباحة ورخصة لأنَّ القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف السبعة عند من يقوم بنقله الحجة ويقطع خبره العذر ويزيل الشّك من قراءة الأمة(١) .

أمَّا الأحرف الستة الباقية فهى لم تنسخ فترفع ولا ضيعتها الأمة وهى مأمورة بحفظها ، ولكن الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت في قراءته وحفظه بأي تلك الأحرف السبعة شاءت كما أمرت إذ هى حنثت في يمين وهى موسرة أن تكفر بأى الكفارات الثلاث شاءت إما بعتق أو اطعام أو كسوة فلو أجمع جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث دون حظرها التكفير بأن الثلاث شاء المكفر كانت مصيبة.كحكم الله مؤدية في ذلك الواجب عليها من حق الله فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته وخيرت في قراءته بأى الأحرف السبعة شاءت فرأت لعلّة من العلاء(٢) أوجبت عليها الثبات على حرف واحد قراءته بحرف واحد ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية ولم تحظر قراءته بجميع حروفه على قارئه بما أذن له في قراءته به(٣) .

وذهب جمهور العلماء من السلف والخلف وأئمّة المسلمين إلى أن

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ١ / ٢٤ .

(٢) ويقصد بالعلّة هنا : الاختلاف في القراءة بين المسلمين والتنازع في قراءة القرآن حتى احتدم وبلغ خطره مبلغاً عظيماً جعل الناس يكفر بعضهم بعضاً وكادت تكون فتنة في الأرض وفساد كبير .

(٣) الطبري ـ جامع البيان ١ / ٢٠ .

المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة العرضة الأخيرة التي عرضها النبي على جبريل عليه السلام .

فالمصاحف العثمانية قد اشتملت على الأحرف السبعة كلّها ولكن على معنى أنَّ كل واحد من هذه المصاحف اشتمل على ما يوافق رسمه من هذه الأحرف كلاً أو بعضاً بحيث لم تخل المصاحف في مجموعها عن حرف منها رأساً(١) .

ولم يرد أنّ عثمان أمرهم أن يتركوا أحرف منها ويبقوا حرفاً واحداً ، كما ذهب بعض العلماء ، فالمتفق عليه بين العلماء هو اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبع لأنَّ فيه دفع للفتنة وتوحيد للكلمة بين المسلمين وإقرار النازل كما نزل ، وعلى المسلمين الإحاطة علماً بهذه الحروف حتى يتركوا ما عداها ولا يعتمدوا سواها فتجتمع بذلك كلمتهم وتطفىء فتنتهم على نمط ما فعل رسول الله ﷺ عندما استغرب بعضهم من قراءة بعض فأفهمهم رسول الله ﷺ أنَّ القرآن أنزل على سبعة أحرف وأنَّ كلاً من المختلفين على صواب في قراءته وكذلك فعل عثمان رضي الله عنه .

والذي نميل إليه وتؤيده الروايات الصحيحة أن المصاحف العثمانية قد اشتملت في رسمها على الأحرف السبع مع إقرارنا للقائلين بأنَّ المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات من لغات العرب(٢) بمعنى أنَّ القرآن لا يخرج عن سبع لغات من لغات العرب وهي لغة قريش وهذيل وثقيف وهوازن وكنانة وتميم واليمن وهي أفصح لغات العرب وهذا لا يمنع أنَّ القرآن قد حوى ألفاظاً كثيرة من لغات قبائل أخرى غير السبعة ولكنها قليل إذا ما قيست باللغات السبع فالقواعد تبنى على الغالب الأعم وليس على القليل النادر .

---

(١) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ١٦٩ .

(٢) المراد بالأحرف السبعة التي تنزل بها القرآن مسألة خلافية بين العلماء فيها مذاهب وآراء ذكر العلماء فيها أربعين قولاً .

إعجام(١) المصحف وشكله

لقد سبق وأن ذكرنا أنَّ الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر والجمع الثاني في عهد عثمان في الجمعين كان القرآن مجرداً فيهما من الشكل والنقط ، والسبب في ذلك يرجع إلى عدَّة أمور :

١ ـ الدلالة في القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة بقدر الإمكان وقد روعى ذلك في الرسم العثماني .

٢ ـ إفادة المعاني المختلفة بطريقة تكاد تكون ظاهرة .

٣ ـ للدلالة على معنى خفي دقيق كزيادة الياء في كتابة كلمة أيد في قوله : ﴿ والسَّماء بنيناها بأيد ﴾ ، والمعنى هو الإيماء إلى تعظيم قوّة الله التي بنى بها السماء .

٤ ـ الدلالة على أصل الحركة مثل كتابة الكسرة ياء في قوله تعالى : ﴿ وإيتاء ذي القُربى ﴾ والضمة واو .

٥ ـ إفادة بعض اللغات الفصيحة مثل كتابة هاء التأنيث تاء مفتوحة في لغة طيئ .

٦ ـ حمل الناس على أن يتلقوا القرآن من صدور ثقات الرجال ولايتكلوا على الرسم العثماني الذي جاء غير مطابق للنطق الصحيح(٢) .

ولكن لما اتسعت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بالعجم وزاد هذا الاختلاط عن طريق المصاهرة فظهر مع تقدم الأيام جيل لا يجيد قراءة القرآن الصحيحة فضلاً عن إجادته وحفظه ، ومن هنا بدأ اللحن والتحريف يفشو وينتشر بين الناس ، وذات يوم سمع أبو الأسود الدؤلي

---

(١) الإعجام خاص ببيان ذات الحرف وتميزه عن غيره وبذلك يختلف عن الشكل الذي هو خاص ببيان ما يعرض للحرف من حركة أو سكون .

(٢) الزرقاني ـ مناهل العرفان ١ / ٣٧٢ .

قارئاً يقرأ قول الله تعالى أنَّ الله بريء من المشركين ورسوله ـ بجر رسوله بدلاً من فتحها ـ ومعنى هذا أنَّ الله بريء من رسوله براءته من المشركين وهو كفر صريح فهو خطأ أساء إلى النص القرآني وغير المعنى ، ومن ثمَّ تغيّر الحكم فقد أصبح من الصعوبة بمكان على الجيل الجديد أن يميّز بين الحروف المتشابهة في الشكل المختلفة في الصوت ولم يعد من السهل عليه أن ينطق الحركات الممدودة التي لم تكن مكتوبة ، فهذا اللحن والتحريف الذي عرف طريقه إلى القراءة والأداء جعل أبا الأسود الدؤلي يعزم على وضع قواعد لضبط شكل الكلمات فأحضر شخصاً ممَّن يجيدون الكتابة وكان من عبد القيس ، وقيل من قريش وأعطاه مصحفاً ثمَّ أحضر صبغاً يخالف لونه لون المداد الذي كتب به المصحف وقال له إذا فتحت شفتي فاجعل نقطة فوق الحرف وإذا كسرتها فاجعل نقطة تحت الحرف وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف فإذا اتّبعت شيئاً من الحركات غنّة فاجعل نقطتين ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف وشكل أواخر الكلمات فقط ثمَّ انتشرت طريقته وعمل الناس بها ولكنها لم تحفظ الألسنة من الخطأ كل الحفظ(١) .

وكان الذي فعله أبو الأسود الدؤلي في المصحف يسمى نقط إعراب وهو العلامات الدالة على ما يعرض للحرف من حركة أو سكون أو شد أو مد إلى آخره بخلاف نقط الاعجام وهو العلامات التي تميز الحروف بعضها من بعض كي لا يلتبس معجم بمهمل وهو ما سنتحدث عنه في الاصلاح الثاني .

أمَّا الإصلاح الثاني فقد حدث في عهد عبد الملك بن مروان وصاحب الفضل فيه يرجع إلى كل من نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني ؛ فقد أمرهما الحجاج بن يوسف الثقفي بمنع التصحيف الذي

---

(١) أبو عمرو الدّاني ـ النقط ص١٣٢ .

ساد وانتشر في العراق ، يقول ابن خلكان(١) : وقام نصر ويحيى بإعجام الحروف (أي إزالة عجمتها) بنفس المداد الذي كانت تكتب به الكلمات وكانت الحروف المنقوطة خمسة عشر حرفاً كما هو معروف لدينا الآن(٢) .

ولكن حدث لبس وتشابه بين علامات الإعراب بعلامات تمييز الحروف إذ يقوم كلاهما على التنقيط ولكنها اختلفت في اللون وفي موضعها من الحرف الذي تتعلق به ، فنقط تمييز الحروف يكون مدادها من نفس مداد الحرف بينما نقط الإعراب تكون من مداد يخالف في اللون مداد الكلمة . أمَّا موضع نقط تمييز الحروف فيكون فوق الحرف أو تحته بينما موضع نقط الإعراب يكون منحرفاً قليلاً وقد أدَّى هذا الاختلاف إلى تسرُّب اللبس إلى بعض القراء فوقعوا في أخطاء وأساءت إلى القرآن الكريم وغيّرت معانيه ومن ثمَّ أصبح الأمر في حاجة إلى إزالة هذا اللبس والغموض وذلك أن يتغير الشكل وقد قيد الله لهذا الإصلاح رجلا يسمى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي يرجع إليه الفضل في تشكيل الكلمات بالصور التي عليها الآن ـ فقد قام بوضع علامات للإعراب واستبدل النقط بالشرط فجعل علامات الإعراب على الكلمة شرط فإذا وضعت في أعلى الحرف عرفت بالفتحة وإذا رسمت أسفله دلّت على الكسرة ، أمَّا الضمة فقد استعمل لها واواً صغيرة الحجم توضع فوق الحرف فإذا تكررت هذه العلامات فإنَّها تدل على التنوين ، وابتكر للسكون علامة جديدة هي الدائرة الصغيرة التي توضع فوق الحرف كما وضع علامات للمد والتشديد ، وبهذا استغنى عن مخالفة مداد الشكل لمداد الاعجام .

---

(١) وفيات الأعيان ١ / ٢٥٣ .

(٢) الحروف المعجمة خمسة عشر حرفاً وهي : ب ، ت ، ث ، ج ، خ ، ذ ، ز ، ش ، ض ، ظ ، غ ، ف ، ق ، ن ، ى .

كما أصبح مجموع العلامات التي وضعها الخليل بن أحمد ثمانية وهى الفتحة والكشرة والضمة والسكون والشدّة والمدّة وعلامة الصلة والهمزة ، ومن ثمَّ أصبح من الممكن بعد هذا الإصلاح الأخير أن يجمع الكاتب بين شكل الكتاب ونقطه بلون واحد دون غموض أو التواء .

وزاد التحسين في القرآن الكريم في تجويده وترتيله وحركاته وسكناته سارياً حتي وصل إلينا بهذه الصورة التي عليها الآن وذلك بفضل العلماء الأجلاء السابقين الذين جندوا أنفسهم لخدمة كتاب الله والإسلام والمسلمين ، نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يجزيهم خير الجزاء بسبب ما قدموه للإسلام والمسلمين من خدمات جليلة ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

والحمد لله رب العالمين . .

obeikan.com

الخاتمة

إنَّ الحديث عن القرآن الكريم حديث يشعر معه الباحث بالإجلال والبحث والتدبُّر فيه يجعله يحس بالعزة والفخر وذلك لأنه يتحدث عن أساس العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها كل علم منه يستمد وعليه في القيم والفضائل والسلوك والعمل فهو حبل الله المتين فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل وليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .

أُحيط القرآن منذ ابتدئ نزوله بالحفظ والحماية من الله ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا لهُ لحافظُون ﴾ .

وبالاهتمام والعناية من رسول الله ﷺ الذي كان يحرك لسانه بالقرآن بعد أن ينفصم عنه الوحي لشدَّة حرصه على تبليغ ما نزل عليه من القرآن إلى أمته بكماله وتمامه من غير زيادة أو نقصان أو تغيير أو تبديل أو تحريف أو تأويل حتَّى طمأنه الله بقوله : ﴿ لا تُحرِّك به لسانك لتعجل به إنَّا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتَّبع قرآنه ثمَّ إنَّا علينا بيانه ﴾ وشهد الله سبحانه وتعالى لرسوله بالأمانة في التبليغ عن الله في قوله : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثمَّ لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ .

ومن وسائل حفظ القرآن في عهد الرسول ﷺ كتابته وتدوينه في اللخاف والرقاع والعُسُب والاقتاب وذلك بأمر من رسول الله ﷺ « لاتكتبوا عنِّي ومن كتب عنِّي غير القرآن فليمحه » واتّخذ لهذا الغرض كتَّاباً يكتبون عنه بلغ عددهم في أصح إحصاء اثنين وأربعين كاتباً .

وكان يحض الصحابة على حفظه وتعلمه ودرسه في قوله ﷺ : « خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه » ، وفي قوله : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت

الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلاَّ نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفظتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

كما كان يحذرهم من نسيانه أو إهماله بقوله : « تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمّد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها » .

وفي الحديث من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لا حسد إلاَّ في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار » .

وكان الصحابة يتسابقون في استظهاره ويسارعون إلى مدارسته ويهجرون مضاجعهم بالليل لتلاوته في الأسحار وكان القرآن أحب إليهم من كل نفيس وجليس إذ كانوا يجدون له لذّة في قلوبهم وراحة لنفوسهم وزيادة في إيمانهم فشغلوا به كل أوقاتهم فكان يمر على بيوت الصحابة فيسمع لها دوياً كدويّ النحل بالقرآن .

وقد حفظ القرآن في عهد النبي ﷺ عدد وفير من الصحابة غير أنهم كانوا في حفظه على طبقات مختلفة ودرجات متفاوتة في الكثرة والقلّة فمنهم من كان يحفظه كلُّه عن ظهر قلب ومنهم من كان يحفظ بعضه على حسب قدرته ومنهم من كان يكتبه على الصحف والرقاع والألواح خوفاً من ضياعه ونسيانه ، وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أنَّ سبعين رجلاً من الصحابة قتلوا في غزوة بئر معونة كان يُقال لهم القراء وحزن النبي على قتلهم غاية الحزن فاستمر يقنت في الصبح شهراً يدعو على رعل وذكوان وعصية لغدرهم بهؤلاء القراء .

وكان النبي ﷺ يبعث إلى من كان بعيد الدار من الصحابة من يعلمهم القرآن ويبعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة وأرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته .

يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه : كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منّا يعلمه القرآن .

فلمّا كان عهد الصديق] صادفته في أوّل عهده مصاعب وشدائد أثارت مخاوف المسلمين على مستقبل الإسلام ووحدة المسلمين تمثّلت هذه المصاعب في حركة الردّة التي هبّت كالريح العاصف في أنحاء شبه الجزيرة العربية(١) فقام الصديق يواجه هذه المحنة القاسية والشدّة العاتية بكل قوّة واقتدار فعزم على قتالهم فعقد الألوية وبعث بالجيوش الإسلامية إلى كل ناحية سرت فيها هذه الرُّوح البغيضة .

وهناك دارت عدّة حروب بين المسلمين وجماعات المرتدين كان من أعظمها موقعة اليمامة في أواخر سنة إحدى عشرة من الهجرة التي استشهد فيها جمع غفير وعدد وفير من المسلمين بلغ عددهم الفا ومائتين من بينهم سبعين من حفظة القرآن وقرائه وحزن كبار الصحابة على من استشهد من القراء والحافظين لكتاب الله وفكر سيدنا عمر في جمع القرآن خشية ذهاب حفاظه أو خشية التبديل والتغيير أو الزيادة والحذف فأشار على الخليفة بجمع القرآن من الأدوات التي كتب عليها كالألواح واللخاف والعُسُب وغيرها ليضم في مصحف واحد ليسهل الرجوع إليه وبذل الصحابة في هذا الأمر جهوداً مضنية وتسابقوا في مضاعفة الجهود لنيل الشرف الموعود من جمع القرآن فكان الناس يأتون إلى زيد بن ثابت فلا يكتب آية إلاّ بشاهدي عدل ، أنه عين المكتوب بين يدي النبي ﷺ حتى أتمّوا جمعه ، وبهذا العمل العظيم يكون الصديق أوّل من جمع كتاب الله عزّ وجلّ فهو أعظم الناس أجراً .

وجاء عهد عمر رضي الله عنه الذي اتسم بالعدل والمساواة بين أفراد الأمة فما ذكر العدل إلاّ ومعه عمر ثمّ مضى ، وجاء عثمان رضي الله عنه فاتسعت في عهده

(١) راجع حركة الردّة في عهد أبي بكر للدكتور / حسن شاهين .

الدولة الإسلامية وبسط الإسلام ربوعه في بلاد شتّى وأدّى إنتشار الإسلام واتّساع رقعته إلى تفرُّق المسلمون ومعهم القراء والحفاظ في الأمصار المختلفة وجدوا في نشر مبادئ الإسلام وتعاليمه المستمدّة من كتاب الله وسُنَّة رسوله فكان أهل كل إقليم يأخذون بقراءة من اشتهر عبد اللهابن مسعود وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري وأهل حمص عن عبادة والمقداد وأهل فلسطين عن معاذ وهكذا فكانت وجوه القراءة التي يؤدونْ بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي أنزل عليها القرآن فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار إذا احتوتهم المجالس أو التقوا على جهاد أعدائهم يعجب من أن تكون هذه الوجوه كلّها على اختلاف ما بينها في كلام واحد ، فإذا علم المستمع أنَّ هذه القراءات مسندة إلى رسول الله ﷺ وأنه أجازها فربما تركت في صدره شيء من التردد فالاختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة فتح باباً من الشقاق والنزاع في قراءة القرآن ، وهذا أمر إن هو استفاض في الناس ومردوا عليه خرجوا منه إلى المناقضة والنزاع وإلى أن يرد بعضهم على بعض وليس من وراء هذا إلاَّ شبح الفتنة الهوجاء التي تؤدي إلى النزاع وربما إلى إراقة الدماء .

فسارع سيّدنا عثمان إلى معالجة هذا الأمر قبل أن يستفحل الخطر وجمع الصحابة وأجمعوا أمرهم على أن ينسخوا الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر ويجمع الناس على القراءات الثابتة المعروفة عند النبى ﷺ ويرسل بنسخ من هذه المصاحف إلى الأمصار ويأمر الناس بإحراق كل ما عداها وقام الصحابة بعد مصحف عثمان بقراءته في البلاد المختلفة .

وعلى هذا يكون القرآن قدمرَّ خلال جمعه بثلاث مراحل :

الأولى : كتابته في الأكتاف والرقاع والعُسُب وغيرها وكان ذلك في عهد النبى ﷺ .

الثانية : كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه والحاجة الدّاعية إلى ذلك

حرص الصحابة على القرآن وخوفهم من ذهاب شيء منه بسبب موت حملته واستشهادهم في سبيل الله عزَّ وجلَّ وهو من وسائل حفظ الله سبحانه في وعده : ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلنا الذِّكر وإنَّا لهُ لحافظون ﴾ .

الثالثة : كانت في عهد عثمان بسبب اختلاف الأمة في حروف الأداء ووجوه القراءة اختلافاً أدَّى إلى النزاع بين القراء والمتعلمين .

ثمَّ لما تسلل اللحن إلى ألسن العرب ودخل الأعاجم في دين الله أفواجاً وخيف على القرآن من اللحن اضطر العلماء إلى تعزيز تلك القواعد بعلامات ظاهرة تكتب مع الحروف على أواخر الكلمات وأوائلها وأوسطها لتوضيح معانيها وعهد بهذا العمل إلى أبي الأسود الدؤلي ثمَّ تبع ذلك بأعجام الحروف وهي وضع نقاط على الحروف من فوقها أو تحتها ليتميز عما يماثله في الرسم ، وقد عهد بهذا العمل إلى نصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني فلمَّا جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي غيّر هيئة الشكل ومازال التحسين في الازدياد حتى وصل إلى ما نراه اليوم في المصاحف من علامات الحذف والزيادة والبدل والإخفاء والإظهار والادغام والإقلاب والوقف بأنواعه والإمالة والإشمام والتسهيل ورءوس الآيات وتعدادها والأجزاء والأحزاب وأرباعها وموجب السجدات ومواضعها وأسماء السور وعدد آياتها ومكيها ومدنيها وغير ذلك .

لقد كان القرآن محل عناية المسلمين واهتمامهم في كل العصور من حيث الضبط والكتابة والحفظ والتدبُّر والفهم فحفظوه وعملوا بما فيه حتى قال بعض السلف « أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن حتى يعملوا بما فيهنَّ من العمل فتعلمنا العلم والعمل جميعاً » وجاء السلف فاهتموا بالقرآن حفظاً وعملاً فنصرهم الله به وسيظل النصر مضموناً للأمة الإسلامية ما تمسكوا بكتاب ربهم وسنَّة

نبيهم وستظل السعادة والحياة الهنيئة مكفولة لمن يعيش تحت ظلال القرآن .

جعلنا الله وإيَّاكم من أهل القرآن الذين أقاموا حروفه وفهموا معانيه بالتدبُّر والتفكر ورزقنا الله العمل بمقتضاه والوقوف عند حدوده والقيام بحقوقه والتحلِّي به .

يقول الإمام الغزالي : « إنَّ قراءة القرآن حق التلاوة أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الاتعاظ باللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ فربَّ قارئ للقرآن والقرآن يلعنه » .

اللَّهمَّ اجعل القرآن حجَّة لنا لا علينا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على النحو الذي يرضيك عنَّا ـ يارب العالمين .

والحمد لله ربّ العالمين ،،

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصـــادر

القرآن الكريم

١ – ابن الأثير – أبو الحسن علي – الكامل في التاريخ– دار المعرفة

٢– الباقلاني – أبو بكر محمد بن الطيب – إعجاز القرآن

٣ – البلاذري – أحمد بن يحي بن جابر – فتوح البلدان– دار الكتـــب العلمية

٤ – البلخي – أبي زيد أحمد بن سهل– البدء في التاريخ

٥ – الترمذي – أبو عيسى – سنن الترمذي

٦ – الجاحظ – أبو عثمان عمرو بن بحر – البيـــان والتبيـــين – دار الفكر

٧ – ابن جرير الطبري – أبو جعفر محمد بن جرير

جامع البيان في تفسير القرآن

تاريخ الرسل والملوك – دار المعارف

٨ – ابن حجر العسقلاني – فتح الباري بشرح صحيح البخاري

٩ – ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون – المقدمة

١٠ – أبو داود – سنن أبي داود – ط دار الفكر

١١ – أبو عبدالله محمد بن أحمد بن إسماعيل السعدي– اختصـــاص القرآن بعوده إلى الرحمن الرحيم

١٢ – الزركشي – البرهان في علوم القرآن – ط دار التراث

١٣ – الزمخشريّ – جار الله – الكشاف

١٤ – السجستاني – أبو بكر عبد الله بن أبي داود

المصاحف – ط ١٩٣٦م

١٥ – السيوطي– جلال الدين عبد الرحمن

أسباب النزول
الإتقان في علوم القرآن
١٦ – أبو عبيد – مجاز القرآن
١٧ – ابن العربي – العواصم من القواصم
١٨ – المرادي – أبي جعفر أحمد بن محمد
الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم – ط الأنوار
١٩ – ابن منظور – لسان العرب
٢٠ – القرطبي – تفسير القرطبي – الهيئة العامة للكتاب –
التذكار في أفضل الأذكار – ط دار التوحيد
٢١ – ابن كثير – البداية والنهاية – فضائل القرآن
٢٢ – ابن النديم – الفهرست – المكتبة التوفيقية
٢٣ – النووي – صحيح مسلم
٢٤ – النيسابوري – أبو الحسن على بن أحمد – أسباب النزول –
مكتبة الإيمان

ثانياً : المراجع :

١ – أحمد الشحات موسى – فتوح الرحمن في علوم القرآن
٢ – أحمد حسن الباقوري – القرآن مأدبة الله
٣ – حسن عبد الحميد وتد – هداية الرحمن في علوم القرآن
٤ – حسن شاهين – حركة الردة في عهد أبي بكر
٥ – جمال مصطفى – إعجاز القرآن – ط دار الهداية
٦ – عبد المنعم القيعي – الأصلان في علوم القرآن
٧ – عبد الصبور شاهين – تاريخ القرآن
٧ – عبد الفتاح القاضي – تاريخ المصحف الشريف
٨ – عبد الحي الفرماوي – رسم المصحف ونقطه

obeikan.com

١٠ – محمد عبده – رسالة التوحيد
١١ – محمد عبد الله دراز – النبأ العظيم
١٢ – محمد عبد العظيم الزرقاني – مناهل العرفان
١٣ – مناع القطان – مباحث في علوم القرآن
١٤ – يوسف القرضاوي – الخصائص العامة للإسلام

obeikan.com

الفهرس

الموضـــوع الصفحة

المقـدمة ٣

الفصل الأول

التعريف بالقرآن الكريم ٨

تمهيد

التعريف بالقرآن ٩

أسماء القرآن ومضمونها ١٣

كيفية تلقي الرسول ﷺ القرآن ١٨

١ ـ الوحي مراتبه وأحواله ١٩

٢ ـ كيفية التلقي عن جبريل ٢٢

الفصل الثاني ٢٥

مراحل نزول القرآن وكيفيته

الأقوال في نزوله ٢٨

حكم نزول القرآن منجماً ٣٣

أسباب النزول ٤٣

معرفة السبب ٤٨

فوائد معرفة أسباب النزول ٤٩

إعجاز القرآن ٥٣

الفصل الثالث

جمع القرآن في عهد الرسول

١ ـ جمع القرآن في القلوب والصدور ٥٧

٢ ـ الأميّة عن النبي ﷺ إبان البعثة ٦١

٣ ـ جهود النبي ﷺ في إزالة الأمية من أصحابه ٦٤

٤ ـ حفّاظ القرآن في عصر الرسول ٦٥

obeikan.com

الموضـــوع	الصفحة
٥ ـ أسباب ودواعي حفظ الصحابة للقرآن	٧٥
الفصل الرابـــع	٨٠
كتابة القرآن في عهد الرسول وأسباب ذلك	٨٠
أسباب كتابة القرآن	٨٣
كُتَّاب الوحي	٨٤
اختصاصات الكتَّاب	٨٨
الأدوات التي يُكتب عليها	٨٣
الفصل الخامس	
جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه	٩٨
١ ـ غزوة اليمامة	٩٩
٢ ـ الشورى في جمع القرآن	١٠١
٣ ـ رأى الخليفة في جمع القرآن	١٠٢
٤ ـ أسباب جمع القرآن	١٠٦
٥ ـ تكليف زيد بالجمع وأسباب ذلك	١٠٧
٦ ـ طريقة الجمع	١١٢
٧ ـ ثبوت الثقة للكُتَّاب والمكتوب	١١٦
٨ ـ خصائص جمع القرآن في عهد الصديق	١١٧
٩ ـ أماكن الصحف القرآنية	١١٩
١٠ ـ جمع الصحابة للقرآن	١٢١
الفصل السادس	١٢٨
جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه	١٢٨
١ ـ صفة الجمع في عهد عثمان	١٢٩
٢ ـ وقت الجمع	١٣٦
٣ ـ مشاورة عثمان للصحابة	١٣٨

obeikan.com

الموضـــوع الصفحة
٤ ـ اللجنة التي قامت بالتدوين ---------- ١٤٠
٥ ـ منهج الكتابة في مصحف عثمان ---------- ١٤٣
٦ ـ معنى نزول القرآن بلسان قريش ---------- ١٤٨
٧ ـ عدد المصاحف المنسوخة وأماكن تواجدها ---------- ١٤٩
٨ ـ تحريق عثمان للمصاحف وإقرار الصحابة عليه ---------- ١٥٧
٩ ـ الرسم العثماني في المصاحف ---------- ١٦٦
١٠ ـ الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان رضى الله عنهما ---------- ١٦٩
الخاتمة ---------- ١٨٠
١ ـ نزول القرآن على سبعة أحرف
٢ ـ الفرق بين المصاحف
قائمة المصادر والمراجع ---------- ١٨٦
فهرست الموضوعات ---------- ١٨٩

obeikan.com